الكريشنائية

تقوم التعاليم الدينية الكريشنائية على الإيمان بالإله كريشنا والقوانين التي تضمنتها الفيدات؛ والفيدات هي أقدم الآثار الهندية المكتوبة التي وصلت إلينا، وعلى أساس القوانين الفيدية، التي دونت منذ 500 عام، تطورت حضارة عاشت على كل أراضي الهند المعاصرة، إضافة إلى جنوب شرقي آسيا، وباكستان، وأفغانستان، وسواها من بلدان آسيا الأخرى. ويرى الكريشنائيون المعاصرون في هذه الحضارة، حضارة نموذجية. وقد وصفت الدراسات الكريشنائية ميزات هذه الحضارة القديمة على النحو الآتي:

«أراض مترامية الأطراف كانت خاضعة لسلطة إمبراطور واحد، خضع له حكام الدويلات والإمارات القائمة على هذه الأراضي. لقد أقر الحكام التابعون بسلطة الإمبراطور، وأدوا له الإتاوات والخدمات، أو خضعوا لقوته العسكرية. لقد عمل الإمبراطور على إشاعة الأمن والسلام في أراضي إمبراطوريته، وسعى لكي يعيش الشعب في يسر وبحبوحة. وكان أفضل هؤلاء الأباطرة ملوكاً أقوياء، ورجالاً ذوي إيمان دينيّ عميق، يسجدون للرب الأعلى، ويتفقهون في العلوم الروحية. وعادة ما كان المواطنون راضين عنهم طوال زمن حكمهم. وبعد وفاة الإمبراطور أو أحد الملوك التابعين له، كان العرش يؤول إلى ابنه الأكبر، شريطة أن يوافق الوزراء على مثل هذا الاختيار. وبفضل منشئهم الرفيع، ومعارفهم الروحية العميقة، كان هؤلاء الورثة عادة، أشخاصاً أنقياء صالحين. إذاً، لقد أستند البناء الاجتماعي للمجتمع الفيدي على السلطة القوية، التي كانت تتركز بين أيدي ملوك شرفاء ملتزمين التزاماً صارماً بالمبادئ الدينية، ولم يسمحوا لأي كان أن ينتهك قوانين الإله. لقد عاش الناس بسلام وسعادة في ذلك المجتمع، الذي قام على القيم الروحية السامية. وبنيت حياة المجتمع كله وفق إرشادات الفيدات، وهي كتب مقدسة عرضت فيها المعارف التي منحها الإله نفسه. وكان البراهمن الأبرار هم مرشدو المجتمع الروحيون، الذين علّموا الآخرين كلهم الالتزام بقوانين الإله.

وكان الملوك أنفسهم يثبتون إرشادات العلماء البراهمن، وكانوا جميعهم راضين بحكمهم».

ونحن سقنا هذا المقطع من كتيب معروف جداً هذه الأيام في روسيا. فالكريشنائيون يضعون أمامهم الآن مهمة إحياء الحضارة الفيدية، أي إحياء المجتمع الذي تكون السلطة الزمنية خاضعة فيه للبراهمن، أي للمرشدين الروحيين. وقد قيل عن هذا ما يلي: «لم يكن الملك يتخذ أي قرارات قبل أن يتشاور مع البراهمن، الذين كانوا يوجهون نشاطه وفق مبادئ الكتب المقدسة. وكان الأساس التشريعي لذلك المجتمع، هو «المانو - سامهيتا»، وهو الكتاب الذي جمعوا فيه قوانين مانو: الأب الأول للجنس البشري. وعلى هذا وسواه من الكتب المقدسة الأخرى، وضع البراهمن مبادئ إدارة المجتمع، وكان الملك يطبق تلك المبادئ، بما يتوافق مع الزمان والمكان، والمعطيات القائمة على الأرض، كما كان الفكر السليم رائده في هذا كله».

لقد كان نظام تلقي المعارف عند البراهمن معروفاً في الهند، وفي الشرق على وجه العموم: من المعلم إلى التلميذ، الذي سيغدو بدوره معلماً ينقل معارفه لتلاميذه. وعلى هذا النحو كان ينتقل الفكر (التأويل) الفيدي، ويحقق الكمال الروحي.

وحسب زعم منظّري الكريشنائية اليوم، إن المجتمع الفيدي بدأ يتداعى إثر حلول قرن كالي الذي تعيشه البشرية الآن. ولكن كلمة «قرن» لا تستخدم هنا بمعناها التقليدي، فالقرن يمتد حسب المفهوم الفيدي، عدة آلاف من السنين. إذاً مع حلول قرن كالي أخذ النظام الاجتماعي الفيدي يفقد نقاءه وسيطرته على المجتمع شيئاً فشيئاً. وبدأ تداعي البراهمن أنفسهم أيضاً، فغرق المجتمع كله في الآثام والعيوب. واهتزت السلطة الملكية. وتواصل انحلال الثقافة الفيدية وصولاً حتى بداية عصر التاريخ الحديث. فسقطت الإمبراطورية الهندية الموحدة، وأُلحق مختلف أقاليمها بدول الغزاة. فقد أسست الشعوب التركية على أرض الهند إمبراطورية المنغول العظماء. واستمرت سلطة هؤلاء هنا عدة قرون.

وفي زمن السيطرة المنغولية هذه، ظهرت كلمة «هندوس». وقد اشتقت هذه من كلمة «سيندهو»، وهي تسمية أطلقها المحتلون على سكان البلاد الأصليين. ثمَّ بات سكان الهند كلهم يدعون فيما بعد هندوساً. ويرى أتباع الكريشنائية، أن الهندوس هم فقط أولئك الذين يلتزمون مبادئ الثقافة الفيدية. فالهندوسية هي ديانة الفيدات. وبعد المنغول استولى الإنكليز على الهند، إذ وجد

هؤلاء فيها اليد العاملة الرخيصة، والمواد الأولية اللازمة لصناعتهم. وفي زمن السيطرة التركية على الهند، زُرع فيها الإسلام، كما شرع الإنكليز يغرسون المسيحية هناك. وهكذا تكون الثقافة الفيدية قد خسرت نفوذها في المجتمع الهندي تقريباً، لكنها لم تندثر. فقد تواصل نقل معارف الفيدات من المعلم إلى التلميذ. وكان نظام نقل المعارف هذا قد ظهر منذ فجر خلق العالم، عندما وضع الإله كريشنا المعارف الفيدية في قلب براهما، الذي كان الكائن الحي الأول، الذي خُلق في هذا الكون. وكان ابنه نارادا هو تلميذه الذي نقل المعارف الإلهية إليه. وكان لنارادا بدوره تلميذه شريلا فياساديفا، الذي وضع هذه المعارف في صيغة الفيدات، الأمر الذي جعلها بمتناول الناس كلهم، بمن فيهم هؤلاء الذين يعيشون في زمننا هذا، وهو الزمن «الأكثر كآبة في تاريخ البشرية كله» (قرن كالي).

ثمَّ نقل فياساديفا المعارف الفيدية إلى مادهاشارا، الفيلسوف العظيم البار. وقد بشر هذا بتعاليم الفيدات في أرجاء الهند كلها، وكان له آلاف التلاميذ. وثمَّة في الهند الآن مئات الملايين ممن يؤمنون بالجوانب الروحية للثقافة الفيدية، ويلتزمون مبادئها.

وشاعت الكريشنائية شيوعاً واسعاً في العالم بفضل إنشاء الجمعية الدولية لمعرفة كريشنا. وقد أدت دوراً استثنائياً في هذا الشأن، كتب شريلا برابهوبادا التي يقارب عددها المئة كتاب. وهذه الكتب عبارة عن ترجمة للأدب الفيدي إلى اللغة الإنكليزية، مزودة بشروحات وتعليقات مسهبة على بعض الموضوعات الفيدية. ويعد شريلا برابهوبادا مثالاً ساطعاً لما يمكن أن يفعله الإنسان الملهم روحياً. ففي التاسعة والستين من عمره، وصل شريلا إلى نيويورك ومعه قرابة العشرة دولارات وصندوق فيه مجلدات «شريماد - بهافاتام». وأثناء عشر سنوات جال شريلا الكرة الأرضية خمس عشرة مرة، وأنشأ الجمعية الدولية لمعرفة كريشنا، وافتتح أكثر من مئة مركز من مراكز معرفة كريشنا، في تسعة وأربعين بلداً من بلدان العالم، ومنح السيامة الروحية لآلاف التلاميذ، وعرف الملايين بمبادئ الأدب الفيدي. وفي العام 1971، زار شريلا روسيا. وخرج إلى النور إبان حياته أكثر من مئة مجلد من مؤلفات الأدب الفيدي. وكتبت الموسوعة البريطانية تقول: إن هذا «أثار دهشة عالم العلماء كله».

ومعنى كلمة «فيدا»، هو «يعرف». والفيدات هي من حيث الأساس أناشيد كان يؤديها الكهنة تمجيداً للآلهة. وتتألف «فيدا المدائح (الريغفيدا)» من 1017 نشيداً جمعت في تسعة كتب. وقد كرس الكم الأكبر من أشعارها لتمجيد إله النار أغني، والإله إيندر إله المطر والسماء. وثمَّة فيدا، هي «فيدا تقديم الذبائح»، احتوت على تعليمات لتأدية طقس تقديم الأضاحي للآلهة. وقد دعيت «ياجور - فيدا». وهناك أيضاً «الساما فيدا» (فيدا إنشاد الأغاني)، وتتألف هذه من 1549 بيتاً من الشعر، أكثرها موجود في «الريغفيدا»، ولكن في سياق آخر. وتمجّد «الساما - فيدا» على وجه الخصوص، مشروب السوما السماوي. أما «الاتهارفافيدا»

فهي تحتوي على مختلف الأغاني والطقوس. وقد أُعد قسم كبير منها لمداواة الأمراض.

وقد كتب ساتسفارونادوسا غوسفامي يقول: «هناك أربع فيدات تشجع على تلبية الرغبات المادية بالسجود لإنصاف آلهة. فمن يرغب أن يستمتع بممارسة الجنس مثلاً، يسجد لإله السماوات إيندرا. أما من يرغب في أن تكون له ذرية صالحة، فينبغي عليه أن يتعبد للوالدين الأولين العظيمين برادوكاباتي. ومن يسعى لتحقيق نجاح في مساعيه، يجب أن يتعبد الإله دورغا. ومن يرغب في أن يمتلك القوة، عليه أن يسجد لإله النار أغني. وعلى الساعي لتحصيل الثروة أن يتعبد فيسا. ومن يريد جسداً قوياً، عليه أن يتعبد الأرض. ولا يتحدث الأدب الفيدي عن أنصاف الآلهة بصفتهم ثمرة للمخيّلة البشرية، بل بصفتهم منفذين للإرادة العليا، ممنوحين سلطة لإدارة شؤون الكون. فالطبيعة لا تفعل شيئاً من تلقاء ذاتها، وخلف كل ظاهرة من ظاهراتها تقف شخصية ما. فإيندرا يوزع هطول الأمطار، وفارونا يسيّر شؤون البيئة البحرية. لكن ما تنبغي الإشارة إليه، هو أن أيّاً من هؤلاء الآلهة، وعددهم ثلاثة وثلاثون مليوناً، لا يضاهي الإله الأعلى، بها غافانا، الحقيقة العليا المطلقة (أوم تات سات).

إن أنصاف الآلهة هؤلاء، ليسوا سوى منفذين لإرادة الإله الأعلى. فالإله كريشنا يؤكد في «البهاغاماد - جيتا» مثلاً: أن كل النعم التي يمنحها أنصاف الآلهة، هي في واقع الأمر «تلك التي أعطيها أنا وحدي».

وعلاوة على الفيدات الأربع المذكورة، يتضمن الأدب الفيدي أيضاً، كتاب «المهابهاراتا» (تاريخ الهند)، والبورانات الثماني عشرة. وتعد الأوبانيشادات جزءاً من الفيدات، وهناك كتاب آخر مستقل يتضمن تعميماً نظرياً للمعارف الفيدية كلها، وقد كُرس هذا الكتاب للفلاسفة. إنه كتاب «الفيدانتا - سوترا»، أي الكلمة الأخيرة للفيدات. وقد جاء في «الفيدانتا - سوترا» عن البراهمن إنه الحقيقة المطلقة: «إن الحقيقة المطلقة، هي ذلك الشيء الذي ينبثق منه كل شيء». ثمَّ جاء الشرح التفصيلي لهذه المقولة في «الشاريماد - بهاغافاتا». وقيل هناك: «إنه يجب أن تمتلك الحقيقة المطلقة وعياً، إدراكاً. إنها مقدسة بذاتها».

ويشكل علم الروح الأساس الفلسفي للكريشنائية. ويرى الكريشنائيون أن التفسير الأوفى لمكانة الإنسان في هذا العالم، قد حملته الفيدات تحديداً. فروح الإنسان لا تولد ولا تموت. ولذلك فإن دراسة الروح عن طريق التجربة، في المختبرات، أمر غير ممكن، لأن المعرفة النسبية عاجزة عن تفسير المتعالي فوق العالم المادي. وليست المعرفة المطلقة متاحة إلا للإله نفسه. وتقول «البهاغافادا - جيتا»: «مثلما أُعدّت الروح لكي تنتقل من جسم الطفل إلى جسم الشاب، ثمَّ إلى جسم الكهل، فإنها بعد الموت تنزح لتسكن جسداً جديداً. ولا تحيّر هذه التبدلات الإنسان العاقل». لقد قامت الكريشنائية على فكرة نزوح الروح هذه، هذا النزوح الذي يجري وفق قانون الكارما. وكما قلنا عندما وصفنا الديانات الشرقية الأخرى:

إن قانون الكارما يعني، أن كل فعل يأتيه الإنسان في العالم المادي، تترتب عليه نتائج معينة. وسوف يجني الإنسان في المستقبل ثمار أعماله الصالحة والطالحة.

أما فكرة نزوح الروح، فإن نقطة ضعفها تكمن في أن الإنسان لا يتذكر أي شيء من حيواته السابقة. والغرض من الفكرة عينها، هو تحقيق العقاب الكامل عمّا اقترفه الإنسان من آثام. وكل منا يعرف أن هذا لا يتحقق في حياة واحدة: لا يتلقى الإنسان جزاء أفعاله الشريرة، أو ثواب أعماله الصالحة في حياته عينها. وإذا ما امتد وجود الفرد خارج إطار حياة زمنية واحدة، وخرج منها إلى رحاب آلاف المرّات، فإن المسألة برمتها تسقط: من يستطيع أن يرصد ما يحدث للروح أثناء الزمن المعني؟ في المسيحية يتلقى الإنسان جزاء ما فعل، بعد موته، بعد أن تنتهي حياته (الواحدة الوحيدة)، ويحدث هذا لدى حلوله في العالم الآخر مباشرة. ويرى كثيرون أن فكرة نزوح الروح ليست فكرة منطقية، لأن الإنسان لا يتذكر أياً من وجوداته الكثيرة السابقة. وهذا يعني أنه لا يتذكر أي إثم من الآثام التي اقترفها في أي من وجوداته، وهو لا يعاني في هذا السياق أي شكل من أشكال تأنيب الضمير. ولن يعمل بالتالي في سبيل أن يكفّر عن آثامه التي اقترفها. فكيف يمكن إذاً أن تعمل آلية الكمال الروحي عند الإنسان، وهي الآلية التي لا عمل لقانون الكارما من غيرها؟ وكيف أمكن لفكرة نزوح الروح نفسها أن تظهر؟ من البديهيّ أنها لم تنشأ من فراغ، ولم تبتكر ابتكاراً تأملياً صرفاً لكي تعلل أو تفسر وجود العدالة، أو لكي تؤكد أن تحقيق هذه الأخيرة في صورة قانون الكارما، أمر مضمون. وكانت فكرة نزوح الروح قد ظهرت عندما رصد الناس كيف كانت روح من عاش سابقاً، تظهر سماتها في مولود جديد. ونحن كنا قد عالجنا هذه المسألة معالجة وافية في كتابنا: «الإله، والروح، والخلود». وواقع الأمر إن روح الإنسان يمكن أن تأخذ لذاتها إحداثيات أرواح أخرى. ولكن هذا لا يحدث إلا في حالات معينة، غالباً في حالة الأزمات النفسية التي تتسبب بها حالات الشدة و....

ولكن التكفير عن أي إثم مقترف، أمر مستحيل في إطار فكرة نزوح الروح هذه، التي تقوم في صلب الكريشنائية. وقد كتب الأيديولوجي الكريشنائي الروسي شريلاهاريكيشا سوامي يقول: «إن الفعل الصالح لا يلغي الفعل الطالح، لأن للأوّل آثاراً إيجابية وللثاني آثاراً سلبية. ولتفادي آثار الأفعال السيئة، لا بدّ من امتلاك مهارة التكفير عن الآثام. ولكن المبادئ العليا للفلسفة الفيدية ترفض النتائج الإيجابية والسلبية لأفعالنا على حد سواء، لأن هذه وتلك تبقينا في العالم المادي، وهذا بحد ذاته شر، لأنه طالما بقي الكائن الحي في هذا العالم، فسوف تتواصل آلامه المادية».

وينتج عن هذا، إن الحياة نفسها شر، ويجب أن يبذل كل جهد ممكن لوضع حد للحياة المادية، أي ينبغي تحقيق الانعتاق من سجن الجسد. بيد أن هذا لا يعني وضع حد للحياة عنوة (فحياة الروح تتواصل في هذه الحال أيضاً، ولكن في أناس آخرين)، بل يجب أن يحصل هذا الانعتاق بشكل طبيعي، إذ يقع في آخر سلسلة الولادات المتكررة.

ورأى المسيح أنه يجب مد يد العون لكل إنسان كي يصبح أفضل، ويجب تعليم الناس أن يحب بعضهم بعضاً، وبهذا يستأصل الشر. فإذا ما قابل كل منا الشر بالخير، فسوف يندثر الشر بالتأكيد. لكن مفكري الكريشنائية يرون أن الإنسان عاجز عن تحقيق ذلك، ولذا يجب بذل جهد للتحرر من الحياة، من الآلام التي تسببها الحياة. وقد كتب سوامي في هذا السياق يقول: «يولد الإنسان لكي يدرك علم الروح، ويعرف كيف تدخل الروح دورة الولادات والميتات المتكررة، لكي تجني في أثناء ذلك ثمار أعمالها التي أتتها في الماضي. وسيعي الإنسان العاقل عاجلاً أم آجلاً إنه بات رهينة الميلاد والموت، والشيخوخة والأمراض، وهو يحاول فهم سبب آلامه. لكن البشر عاجزين عن حل هذه المعضلات، بل لا يحاولون ذلك أصلاً».

لكننا لا نستطيع أن نوافق على هذا الرأي. فليس في هذا العالم مكان للمصادفة. وليست الحياة بنت المصادفة. ومهمة الإنسان ليست تصحيح ما خلقه الإله، بل الالتزام بقوانينه. وحسب هذا القوانين، يجب على الإنسان أن يولد، ويحب، وينجب، ويحب الناس، ويمد يد العون للقريب. وألا ترتكب الإثم، يعني ألا تنتهك ناموس الإله، ناموس الطبيعة، ولا يعني أن تتهرب من المعضلات القائمة. وإذا ما ارتكب المرء إثماً، فإن مهمته أن يعود ثانية إلى طريق الحق، إلى الطريق التي حدّدها الخالق، وعليه كيف يمكن أن يعتبر الإثم والتكفير عن الإثم شراً، انطلاقاً فقط من كونهما مظهرين من مظاهر الحياة عينها؟ فلو كانت الحياة شراً لما خلقها الإله. ولذلك فإن انتحال الكريشنائية كما جاءت في النصوص التي سيقت هنا، لا يفضي إلى كمال الإنسان والمجتمع.

إن الحياة نفسها بالنسبة للكريشنائيين وهم (مايا). فقد كتب سوامي يقول: «عندما يقع الكائن الحي في العالم المادي المصنوع من التراب، والماء، والنار، والهواء، والعقل، والإدراك، فإنه يلقى نفسه تحت سلطة مختلف أشكال الوهم، الذي تدعوه السنسكريتية مايا. فالمايا، أي الوهم، يدثّر الروح الأزلية، يرغمها على الاندغام بالجسد المادي، وبالعالم المادي». ثمَّ يقول بعد ذلك: «وإذ يقع تحت المايا، فإن الكائن الحي ينسى وضعه البدئي كخادم أزلي للإله، وفي سعيه لتلبية ضرورات الجسد المادي، والأحاسيس المادية، يقضي الكائن الحي على ذاته بالآلام في مختلف أشكال الحياة».

إذاً، ها نحن مرة أخرى أمام الآلام: لتتخلص منها يجب أن تتخلص من الحياة نفسها. إن الرسالة الحقيقية لأي دين تقوم في الأصل، على جعل حياة الإنسان أفضل، وليس على السعي لوضع حد لسلسلة الولادات، بهدف التخلص من الآلام. وعلى وجه العموم، لماذا ينبغي أن نتهرب من الآلام، لماذا يجب أن نخافها؟ فالآلام تشكل الجزء الرئيس من الحياة، أساس الحياة. ومن غير الآلام لا يمكن أن يتحقق الكمال الذاتي. فما هي الممارسة اليومية لخدمة الإله كريشنا؟

لكي تغدو الحياة أكثر سمواً، ولكي يعي الإنسان جوهر علاقاته مع الرب الأعلى، ويكتسب تجربة مباشرة في التواصل معه، يجب عليه «أن يردد اسم الإله المقدس مجرد ترديد عادي، لأن الأصوات المتسامية للاسم المقدس، تُطهّر الروح». يجب تكرار النطق بمانترا هاري كريشنا. وتتألف هذه من أسماء الإله الواردة في الفيدات: هاري كريشنا، كريشنا كريشنا، هاري هاري/ هاري راما، راما راما، هاري هاري.

إن تكرار هذه المانترا يحقق للإنسان حالة الاستغراق في التأمل. «إن أصوات الاسم المقدس أصوات معتادة بالنسبة للروح. ويمكن مقارنة تكرار المانترا ببكاء الطفل الذي يدعو أمه، لأننا نحن. النفوس الروحية نضل طريقنا في مجاهل هذا العالم المادي، ونحتاج لحماية والدينا. وكلمة هاري هذه مشتقة من كلمة هارا، وهي اسم الطاقة السامية للرب. وكريشنا هو اسم الرب الذي يشير إلى طبيعته الكليّة الاستقطاب؛ أما اسم راما فهو يعني أن الرب هو المستمع الأعظم في العالمين الروحي والمادي».

أما كريشنا، فهو خالق الكون الوحيد الذي يصلي جميعهم له: المسيحيون، والمسلمون، والبوذيون، واليهود، والداوسيون. وكان شريلا برابهوبادا قد قال ما يلي عن كريشنا:

«إننا نستطيع أن نتذكر كريشنا عندما نشرب الماء، لأن كريشنا هو طعم الماء. وفي الصباح أيضاً، عندما تظهر خيوط الفجر الأولى، يمكننا أن نتذكر كريشنا، لأن ضوء الشمس يعكس ضياء جسده. وفي المساء عندما يظهر القمر، نتذكر كريشنا، لأن ضياء القمر انعكاس لنور الشمس. وإذ نسمع صوتاً نتذكر كريشنا، لأن الصوت هو كريشنا. حتى البقرة تذكّرنا بكريشنا الذي يدعونه هوفيندا المانح السعادة للبقر. ومن السهل جداً أن نتذكر كريشنا في القرية: إنه هو نفسه يقول عن نفسه، إنه رائحة الأرض الطيبة. وزهور الربيع، هي كريشنا أيضاً. كما تذكرنا به الرياح، والرعد، والبرق. فالمؤمن عاجز عن أن ينسى كريشنا ولو للحظة واحدة، فكل شيء يذكر به!».

ويدعى الكريشنائيون المؤمنون بالأوفياء، أو المخلصين. ويعيش هؤلاء في المعابد الكريشنائية أو خارجها. ويوجد في العالم الآن أكثر من ثلاثمئة مركز كبير من مراكز معرفة كريشنا، وهناك أيضاً كثير من المعابد. ولهؤلاء كلهم شعار واحد: عش ببساطة، وفكر بتسام. ويحلق الأوفياء من الرجال، شعر رؤوسهم حلاقة ناعمة، ويتركون ضميمة واحدة طويلة في مؤخرة الرأس. وتعد هذه الضميمة العلامة الملازمة للبراهمن والأوفياء الذين يلتزمون بالمأثورات الفيدية. ويرتدي الرجال الكريشنائيون قميصاً بسيطاً، ودهوتي: قطعة قماش طويلة

عرضها متر واحد، تلف حول الورك والساقين بطريقة معينة. وترتدي النسوة أردية ألوانها زاهية.

ويؤدي الكريشنائيون في معابدهم أناشيد وتراتيل معينة، ويقدمون فيها للإله ست وجبات طعام يومياً: مختلف أصناف الطعام، والمرطبات والحلوى. وفي كل مرة ينشدون الأناشيد ويرتلون التراتيل. ثمَّ يبدأ الكاهن بعد ذلك إقامة المراسم التي تدعى أورتيكا. ولا تزال هذه تقام حتى الآن كما كانت تقام منذ مئات السنين. وكانوا يقدمون للرب في غضون ذلك، مصابيح بفتيل من القطن الأبيض المشبع بالزيت، كما كانوا يحرقون له البخور، ويقدّمون الزهور، والماء، والمراوح المصنوعة من ريش الطاووس وريش الياق. وأخيراً يعلن بصوت القوقعة عن ختام المراسم.

وفي وقت الخدمة الصباحية والمسائية، يجتمع الأمناء الذين يقيمون في المعبد، ويؤدون تراتيل معينة. ثمَّ ينشدون ترتيلة هاري كريشنا. وبعد الخدمة الصباحية، يمارس كل منهم بمفرده تمارين التأمل بمساعدة السبحة. وتشبه سبحاتهم (جابا)، السبحات المسيحية، ففي كل واحدة منها مئة وثماني حبات؛ وهاكم العملية الحسابية لهذا العدد: مع كل حبة يرتل الأمين مرة واحدة ترتيلة هاري كريشنا؛ وعليه أن يفعل هذا ست عشرة دورة لكل ترتيلة؛ ويستغرق هذا منه ساعتين من الوقت. فتكرار التراتيل يساعد الأمين على تركيز ذهنه على الرب وتنمية محبته له. وبعد هذه التمارين يستمع الأمناء إلى محاضرة. ثمَّ يتناولون طعام الإفطار: يأكلون الطعام الذي قُدم للرب أثناء إقامة الشعائر الصباحية. وتتألف الوجبة عادة من حبوب، وجوز الهند، والحليب، وزيت الزيتون، والفواكه، والخضار. فالأمناء الكريشنائيون أناس نباتيون لا يأكلون اللحوم قط. وهم يرون أنه ليس من حق البشر قتل الحيوانات، وأكل لحومها. إنها وصية الفيدات.

وتتألف وجبة الغداء عادة من الرز، والخضار المطبوخة، والخبز، ويقيمون في أيام الآحاد ولائم كبيرة يقدمون أثناءها للضيوف والأمناء المقيمين في المعبد، عشرة أصناف كحد أدنى. وفي المساء، تلقى عليهم محاضرة ثانية في فلسفة إدراك كريشنا. وفي المعبد يقيم الرجال والنساء كل على حدة. ومثلهم مثل الرهبان، إذ أعطى هؤلاء عهداً بالعيش حياة العذرية والعفة. وثمَّة من الأمناء من لا يقيم في المعبد. فهؤلاء يعملون لكي يعيلوا أنفسهم وعائلاتهم. ولكنهم يقدمون جزءاً مما يكسبون للمعبد. وثمَّة من الأمناء من يحوّل منزله إلى معبد. وفي غالب الأحيان يتحد ذوو الأسر من الأمناء في مشاعات زراعية، ويزرعون الأرض ويقدمون ثمار عملهم قرباناً للرب الأعلى. كما يوزعون من المؤن التي ينتجونها، على الجيران الذين يعيشون في المكان. وهناك الآن كثرة كثيرة من مثل هذه المشاعات في شتى البلدان. ولا ريب في أن الإنسان يستطيع أن يحقق السلام والسكينة، إذا عمل وعاش مع الآخرين الذين يقاسمونه رؤاه وقناعاته.

تعاليم جديدة (الأخلاق الحيّة)

تعاليم جديدة عن الإله

إن الله في الديانات الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، هو العلة الأولى لكل شيء. أما في الديانات الشرقية، بما فيها التعاليم الجديدة، فإن تصوراتهم عن العلة الأولى لكل ما في الكون، وعمن يدير كل شيء فيه، تتمايز تمايزاً مبدئياً. فمنذ أقدم الأزمنة وقع الانقسام هنا إلى علة أولى، وآلهة. وتدعى العلة الأولى في الشرق، «ذلك» أو «ذاك». وكان هذا الذاك موجوداً هناك قبل أن يوجد الكون، وكانت هناك الإمكانية الكامنة لتحوّل الكون. وقبل أن تظهر القوانين الكونية، كان الذاك موجوداً، وكانت الخطة التي ظهرت وفقها تلك القوانين موجودة. ولا تصف الديانات الشرقية «الذاك» بأنه كلي القدرة، يرى كل شيء، ويعرف كل شيء، وما إلى ذلك. فلم يكن لهذا المبدأ الأعلى أي اسم، أو تعريف، أو جوانب، أو صفات. وحسب زعمهم أن الإنسان عاجز عن تحديد صفات الذاك. ولا يستطيع القول: إنه مخلوق على صورة الذاك ومثاله. ولكن بعض النظم الفلسفية أطلق على الذاك اسم، براهمان، وبارابراهمان، والمجهول العظيم، والعلة التي لا علة لها، والمطلق.

وفي كتاب «الإله، والروح، والخلود»: إن الكون تشكل إثر انفجار عظيم. وهو موجود في زمن محدد، وسوف يهلك نتيجة تقلصه وتكوره في نقطة واحدة. وبعد زمن ما، سيتشكل من هذه النقطة إثر انفجارها، كون جديد. وهكذا دواليك. إذاً، يولد الكون تارة، ويندثر تارة أخرى. أما الذاك فإن وجوده دائم. وحسب الكتب المقدسة الشرقية، أنه مع حلول الليل الكوني، وعندما يتجمع الكون كله في نقطة واحدة، لن يبقى سوى «الذي يحتوي على كل شيء، وهو غير محتوى في أي شيء»: الذاك. فليس بمقدور الذاك أن يندثر في أي ظرف من الظروف. وفيما بعد، عندما يتشكل كون جديد في انفجار عظيم جديد، فإن كل شيء يتشكل من هذا الذاك. ولذلك فإن الذاك موجود في كل شيء: في المادة، وفي الحركة، وفي القوانين، وفي العقل، وفي كل مجهول. ولكن الذاك يبقى دائماً بالنسبة للإنسان، أحجية، يبقى هو المجهول العظيم.

ويحقق الآلهة قوانين الذاك في الحياة. وحسب المصطلحات الهندوسية، أن هذه القوة التنفيذية، أو الإله التنفيذي في نظام كوكبنا نحن، هو الإله إيشفارو (القوة الخالقة). فنظام كوكبنا يقع بكامله تحت عناية هذا الإله: القوة. هو صانعه، وهو يديره، وهو الذي في آخر المطاف يدمره. ولكل نظام من أنظمة الكواكب الأخرى إلهه، إيشفاروه. وحسب المصطلحات الغربية أن إيشفارو، هو اللوغوس. لكن لهذا الإيشفارو - اللوغوس ثلاثة وجوه: براهما (الخالق)، وفيشنو (الحافظ)، وشيفا (المدمر). ولكن البوذية، خلافاً للهندوسية لا تعترف بإيشفارو إلهاً. فالبوذية ترى أن كل إنسان يعبر الطريق عينها التي يعبرها إيشفارو. وهو يخضع للقوانين الكونية عينها التي يخضع الإنسان لها، ويبلغ الإنسان في أعقاب ارتقائه أثناء زمن تجسداته الكثيرة، يبلغ الحالة نفسها التي يبلغها إيشفارو. ويستنتج من هذا، إما أن هناك كثيراً من الآلهة، وإما أنه ليست ثمَّة أي إله. والأرجحية هنا للفرضية الأولى: يوجد كثير من الآلهة. لكن جميع هؤلاء يخضع للقوانين التي وضعها المبدأ الأعلى. وعندما تُدمَر المعمورة، يهلك الآلهة كلهم، ولا يبقى سوى الذاك. بمعنى أدق، أن هؤلاء لا يهلكون، إنما ينتقلون إلى حالة العدم. ووفق أوامر الذاك، يعودون إلى الواقع من جديد، لكي يخلقوا كوناً جديداً أكثر كمالاً.

وفي الفلسفة الغربية نفسها تصور مشابه عن استحالة إدراك الإله، بل حتى التوراة نفسها تؤكد إنه لا يمكن رؤية الإله.

وإذا ما أجرينا مقارنة بين التصور السائد في الديانات الشرقية عن الإله، والتصور السائد في الديانات الغربية عنه، فإننا نستطيع أن نقول: بشيء من الابتذال: إن للإله في الديانات الشرقية، أقنومين: تشريعي (الذاك)، وتنفيذي (قوة الخلق)، وفي غضون ذلك فإن السلطة التنفيذية تخضع للسلطة التشريعية. أما في الديانات الغربية، فإن الإله هو خالق القوانين، وهو الذي ينفذها. فهل ثمَّة ضرورة لإثبات صحة هذه الرؤية وتلك؟ إن الأمر الرئيس في هذا السياق، هو أن كلاً من التصورين الشرقي والغربي، يقر بوجود إله واحد أحد للكون كله. أما تفاصيل نشاطاته وتنظيمها، فهي أمر ليس له أهمية، وليس الإنسان مؤهلاً للحكم فيها. ولذلك فإننا نستغرب إذ نقرأ، إن التصور عن الإله في الديانات الشرقية، أكثر كمالاً. فعلماء الفيزياء الكونية، والفيزياء الفلكية، بل كل المفكرين العارفين بقوانين نيوتن، وكيبلر، لا يعرفون كيف يمكن لكل نظام كوكبي أن يديره لوغوسه، قانونه، قوته الخالقة، فهذا الأمر مستحيل من حيث المبدأ، لأن كل ما في الكون يجب أن يخضع للوغوسات - للقوانين عينها. لقد ظهر مفهوم القوى الخالقة وكثرتها، أي كثرة الآلهة أيضاً، ظهر في الهندوسية منذ القدم، قبل زمن مديد من التوراة والقرآن، ومعرفة القوانين التي توجه عمل الكون. ولذلك فإن مقارنة هذه المفاهيم، مفاهيم القوى الخالقة، مفاهيم كثرة القوى الخالقة، بمفهوم الإله الواحد الخالق الصانع، السائد في اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ليس في مصلحة تلك الأولى. فالبشرية تُقدم وتتطور، تصوراتها عن العالم المحيط، والعلة الأولى تتغير ولا تعد عقيدة متكلّسة. ونحن نرى إنه من الملائم أن نسوق هنا ما ورد عند

كليزوفسكي عندما عقد مقارنة بين رمز الإيمان المسيحي، والتصورات الشرقية عن الإله:

«من جهة، كأن المالك كل شيء يتحدث عن المعطى الأول الأساس (الذاك)، لكنه في الوقت نفسه، هو خالق السماء والأرض. وهو بالتالي القوة الخالقة، أو اللوغوس، بيد أن كل لوغوس هو ثمرة عملية ارتقاء، وليس العلة الأولى. والآلهة الأفراد، أو اللوغوسات كثيرون كثرة النظم الشمسية، وربما أكثر؛ وينسب اللاهوتيون المسيحيون إلى لوغوسنا، الذي صنع نظامنا الشمسي هذا، صناعة الكون كله، وهذا ليس صحيحاً بالتأكيد، لأنه لا يتوافق وقوانين الارتقاء».

وكتبت ي. ب. بلافاتسكايا عن تقسيم الإله الواحد إلى الذاك، والآلهة الفرديين، ما يلي: «إن الإله المطلق يجب أن يكون غير مشروط، ولا يمكن أن يدرك في الوقت نفسه، كإله ذي فاعلية، وخالق واحد حي، من غير أن يسقط هذا المثل الأعلى من فوره. فالإله الذي يظهر في الزمان والمكان، وليس هذان سوى شكلين لذاك الذي هو كل شيء على الإطلاق، نقول: إن مثل هذا الإله لا يمكن أن يكون سوى جزيئة مبعثرة من الكل (الذاك).... وقد فهم القدماء هذا أفضل فهم. فشخصية معتدلة دينياً، كأرسطو على سبيل المثال، لاحظ أن عملاً دؤوباً كالخلق المباشر لم يكن ليليق بإله قط. والشيء عينه علّمه أفلاطون والفلاسفة الآخرون: لا يمكن أن يشترك الإله في عمل الخلق اشتراكاً مباشراً.... وهذا ما أكده الناموس القديم أيضاً:

«إن الطبيعة اعتياد يؤدي عمله بنفسه على أساس مبادئ الإنبات، فيحسّن ويحتوي تلك الأشياء القليلة التي تنبثق من الطبيعة في الوقت الذي تعيّنه الطبيعة بنفسها، وتؤدي عملها وفق قوانين ذاك الذي ظهرت منه».

إذاً، في سعيها لتأكيد تصورات القدماء عن الإله، لجأت ي. ب. بلافاتسكايا إلى معطيات قدماء الإغريق، مع أنه كان من المناسب أكثر لو ساقت تلك التصورات في سياق العلم المعاصر. ولو فعلت لما ظهرت المواجهة بين القوانين الكونية والإله، وهو ما كتب عنه أ. إ. كليزوفسكي:

«لقد نسب العالم الغربي كل الصفات الممكنة إلى المبدأ، فخلق بذلك أسطورة، خلق إلهاً لم يكن له وجود في أي وقت، وليس له وجود الآن. فبتوجهه إلى الإله بالصلوات والتوسلات، وتسميته لهذا الإله المتخيل محبة، ورحمة، ورأفة، وحكمة، وعارفاً بكل شيء، وسوى ذلك من التسميات؛ يكون العالم الغربي قد رفع صلواته وتوسلاته من حيث الجوهر، إلى مبدأ، أو ناموس، لأن الإله بصفته كائناً روحياً، لا وجود له. أما فكرة اللامدرك العظيم، فإن الغرب لا يعرفها. وإذ أدغمت الإله، اللامدرك العظيم بالقوة الخالقة، أو بالإله الشخصي،

فإن المسيحية لم تنشئ بذلك عقيدة دينية عليا، زد إلى هذا أنها أدخلت العالم الغربي في خضم مآس لا عد لها، إذ ساقت تفكيره الديني إلى طريق الباطل. لقد وجهت إلى الإله المسيحي، الذي عدته تعاليم الكنيسة المسيحية، المحبة عينها، والرحمة والإحسان، اتهامات لا عد لها بالظلم، والقسوة، لأن المؤمن المسيحي لا يدرك أن الضربات التي يتلقاها، ليست من الإله، إنما من فعل القوانين الكونية».

وحسب التعاليم الجديدة، أن موقف الإنسان تجاه العلة الأولى، أي تجاه اللامدرك العظيم، يجب أن ينطلق من كون هذا الموقف لا يقضي بوجود عقائد، أو معابد، أو طقوس. فينبغي أن يعرف الإنسان، أن هناك قوى كونية خلاقة (ومنها يسوع المسيح). وأن هذه القوى تؤلف مجتمعة، تراتبية سماوية، هي التي توجه الكون، ونظامنا الشمسي على وجه التحديد. إن التعاليم الجديدة تقيّد اهتمام الإنسان بالنظام الشمسي، لأن هناك قوى خلاقة أخرى تؤدي عملها في أجزاء الكون الأخرى. أما نظامنا الشمسي فإن القوة الخلاقة التي صنعته، هي «ذلك الإله الواحد الذي بين يديه مصير نظامنا الشمسي، وكل ما فيه، ويجب ألا تذهب صلواتنا وتوسلاتنا إلى أبعد منه».

ومن البديهي إننا لا نتفق مع مثل هذا الزعم. فهو يمثل في زمننا هذا خطأ خارجاً عن تسلسل المنطق العلمي. فحقل المعطيات البيولوجي، العقل الكوني، يخترق امتداد الكون كله، ولا يقتصر على نظام كوكب واحد منفرد. والقوانين الكونية واحدة للكون كله، والإنسان نفسه جزء من هذا الكون. ولذلك لا يجوز أن يقيّد الإله الواحد الأحد في إطار نظام كوكب واحد. وغني عن البيان، أن مثل هذه الأنظمة لا عد لها في الكون. فهل يعني هذا أن عدد الآلهة لا عد له أيضاً؟

وانطلاقاً من هذا المعطى، لم يكن غريباً ألا يرى بوذا فيهم آلهة أصلاً. وأباح وجود الذاك فقط. وقد كتب راما شاراكا عن هذا يقول: «لم ينف بوذا وجود الذاك، لكنه قبل به من غير براهين، قبل به كحقيقة بديهية أساسية. وعلاوة على هذا أشار في نظامه بوضوح إلى البراهمان، أو البراهمان الأعلى، أي براهمان في ماهية العدم واللاتجلي». ونحن كنا قد أشرنا إلى أن بوذا احتفظ لنفسه بمكانة الإله الشخصي. ولذلك يرى كثير من اللاهوتيين والفلاسفة الغربيين، في البوذية ديانة إلحادية. والأمر هكذا فعلاً من حيث الفهم الصحيح لجوهر المسائل المطروحة، وإلا ماذا يمكن أن يعني الإله (براهمان) في ماهية العدم، اللاتجلي؟ فمحمد والمسيح أكدا على أن الله يتجلى في كل شيء، في كل شيء على الإطلاق، وفي كل فرد منا.

إذاً، في أعلى القمة يقف المطلق: الذاك، اللامدرك العظيم، المبدأ والمنتهى لكل شيء. ولن يكون هذا مفهوماً للناس في أي وقت؛ لأنه محجوب عنهم. ولكن الذاك لا يوجه العالم بطريقة مباشرة. إن من يوجه العالم هو قوى الكون الخلاقة. وتؤلف هذه مجتمعة، تراتبية سماوية: إنهم أولئك الآلهة الوحيدون، الشخصيون، الذين لهم في الكون وجود. وليس هؤلاء في واقع الأمر سوى بشر نجحوا في

اجتياز حقبة ارتقاء، بلغوا في نهايتها مستوى السمو. ومنهم بوذا، والمسيح، ومحمد. ولكن هؤلاء كثر جداً، فمنهم على سبيل المثال، يلينا ريريخ وآخرون. ويقف على رأس التراتبية السماوية، الذاك الوحيد. وأعضاء الترابية السماوية كلهم أبناء الإله، ومخلّصي العالم. لقد بلغ هؤلاء درجة أنصاف الآلهة.

ويقف كل حبر (معلم) من الأحبار على درجة معينة من سلم التراتبية (سلم يعقوب). لكن أحداً لا يعرف من الذي يقف على الدرجة الأعلى، ومن الذي يقف على الدرجة الأدنى؟ فالبشر عاجزون من حيث المبدأ عن معرفة ذلك، وعليه فإن الجدال لتحديد مَن مِن الأحبار أعلى من الآخر، هو جدال عقيم لا طائل منه. وتضع التعاليم الجديدة المؤمنين. كلهم في شروط متماثلة، وكان قد قيل في هذا الشأن: «تمنح التعاليم الجديدة الحرية الكاملة للإنسان المتنور، الآن وفي المستقبل، إذا ما رأى ثمَّة ضرورة لتبجيل أي مبدأ مجرد بدلاً من إلهه، أن يجله إما في المطلق الذي يحتوي كل شيء ولا يحتويه شيء، أو في الروح الأزلي، أو في المادة الأزلية، أو في القلب الكوني، أو في العقل الكوني، قصارى القول، في أي شيء يريده».

فهناك ملايين الأحبار من مختلف درجات السلطة، والقوة والسلطان، وهؤلاء هم الذين يديرون شؤون الكون وليس الإله، كما يرى المسيحيون. ولو جاز لنا أن نستخدم مفردات اللغة المعاصرة لقلنا، إن كل ما في العالم الذي مصدره الذاك، المجهول العظيم، مبني وفق مبدأ الإدارة الذاتية، لكن دور القادة - الأحبار، هو الذي يقرر كل شيء. وقد قيل في هذا الصدد:

«عندما يتجمع عرق جديد، فإن الذي يجمعه هو الحبر. وعندما تبنى درجة جديدة للجنس البشري، فإن الباني هو الحبر. وعندما تبنى على إيقاع الحياة درجة حددها المغناطيس الكوني، فإن الحبر على رأسها. فليس في الحياة ظاهرة تخلو بذرتها من حبر. وبقدر ما تكون الدرجة قوية بقدر ما يكون الحبر قوياً».

وهكذا فإن التعاليم الجديدة تستبدل بمفهوم الإله، مفهوم المعلم الحبر. ولكن يجب على أتباع التعاليم أن يمتنعوا عن تقديم الأضاحي للأحبار والصلاة لهم، بيد أنه يجب عليهم أن يعترفوا بالتراتبية، ويبجلوا الأحبار كأخوة أكبر سناً.

وقد يصير الرئيس الروحي الزمني إلى حبر. فقد جاء في «الأغني - يوغا»: «ليكن لكلِّ معلّم على الأرض». وهذا المعلّم الزمني هو الذي يصلكم بتراتبية القوى. «ينبغي ألا يكون التلميذ مستعبَداً والمعلم مستعبِداً. ومطلوب في غضون ذلك وعي التراتبية وتوافق الأفعال، ودمج الإرادة الحرة بالاعتراف بالمعلم، وعادة ما تقع العقول الضعيفة في حيرة. وغني عن البيان، أن الشروط والقيود تناقض الحرية بمعناها الفظ المبتذل. لكن وعي المقصد، إضافة إلى المخزون الثقافي، يشكلان الأهمية العظيمة للمعلم. فالقبول بفهم المعلّم سيكون بمثابة عبور البوابة الأولى لعملية

الارتقاء. ولا ينبغي أن ندخل في مفهوم معلم، مقدمات زمنية. فهو الذي سيقدم أفضل نصائح الحياة. وسوف تشمل هذه الحيوية، المعرفة، والإبداع، واللامحدودية» (كتاب «الأغني - يوغا»).

ها نحن قد وصلنا الآن إلى أهم المسائل المبدئية في الديانات كلها، وفي النظم الفلسفية كلها. وقد يطرح هذه المسألة أي إنسان كان. والسؤال هو كيف يمكن أن يوجد الشر في العالم الذي خلقه ويدير شؤونه الإله العارف بكل شيء، والقادر على كل شيء؟ والإله هو بالتأكيد إله الخير. وكانوا قد أقروا في الزمن القديم، وجود إلهين: إله الخير وإله الشر. وقدّموا القرابين لكليهما. أما التوراة فقد أعطت للمسألة حلاً مغايراً: ينفصل الشيطان عن الإله الواحد (إله الخير)، وكان الشيطان من قبل ملاكاً، لكنه عصى أمر الرب. ويجب أن يهزم في آخر المطاف.

ولكن ما هو موقف التعاليم الجديدة من هذه المسألة؟ حسب هذه التعاليم، أن العلة الأولى (الإله الواحد)، كائن ثنائي منذ الأزل، أي أنه يتألف من قطبين، من مبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر. وعليه، ليس ثمَّة ضرورة للبحث عن إجابة للسؤال: كيف ومتى ولماذا ظهر الشر على الأرض؟ فالمبدآن (السالب والموجب) موجودان منذ الأزل. ولذلك فإن كل شيء في الكون مزدوج، ثنائي، أي يتألف من موجب وسالب، من خير وشر. وينسحب هذا على الإنسان أيضاً، وتزعم التعاليم الجديدة، أنه «كما يوجد النهائي واللانهائي، والكامن والملحّ، والجاذب الإيجابي والنابذ، كذلك توجد القوة ويوجد العجز، ويوجد العقل ويوجد العمه، ويوجد الدفء والبرد، والنور والظلام، والخير والشر وما إلى ذلك. لكن هذه الثنائيات المتعاكسة كلها ليست متعاكسة إلا في تصورنا، لأن كل ما يصدر عن العلة الأولى ليس خيراً وشراً، وعقلاً وعمها، وقوة وعجزاً، إلا أنه يتحول إلى هذه المفاهيم تبعاً لرغبتنا، ووفق مطامحنا وتجاذباتنا؛ إلا أنه يمكن القول؛ إنه ثمَّة بين الأقطاب، أي بين الخير والشر، والنور والظلام، والعقل والعمه رابطة حرة للكائن العاقل، هي التي تحدد طريق الكائن المعني».

ومن الواضح أنه يصعب كثيراً ألا نوافق على هذا؛ لأن الجزء المادي من الكون قائم على وحدة المتناقضات وتواجهها، صراعها؛ وبذلك فإن الإرادة الحرة للإنسان تجيز له أن يختار بين الخير والشر، والنور والظلام. وليس صعباً من الوجهة المنطقية أن نتخيل، أن لقوى الظلام (قوى الشر) التنظيم نفسه، التراتبية نفسها التي لقوى النور (قوى الخير).

كما تثير الاهتمام أيضاً كثرة من الكائنات، التي تزعم التعاليم الجديدة إنها تقف الآن في صف قوى الشر. وتتألف هذه من شتى أنواع الوحوش القبيحة الشبه العاقلة، التي لها أهمية كونية متدنية. فالعالمان، الكوني والناري، مسكونان بأرواح

البيئات، التي تؤدي عملاً معقداً وكبيراً في مختلف بيئات الطبيعة. وهذه الأرواح، هي الأقزام، والسيلفي، والأوندييني[1]، والسماندل. وقد اشتهرت هذه في هيئات الحوريات، والساحرات، والدوموفي، وعفاريت الغابات، وعفاريت المياه، و... وتعيش هذه الكائنات بالقرب من الإنسان، بل كانت في زمن ما، صديقة له. ولكن الإنسان فقد صلته معها بسبب عدم إيمانه، وعجزه عن التواصل، وعدم قدرته على فهم جوهر المسألة كلها. وهذا ما دفع بتلك الكائنات إلى الابتعاد عنه، فخسر مساندتها. ولكن، هل فقدت تلك الكائنات شيئاً بسبب ذلك؟ إن كل ما في الكون يسير على طريق الارتقاء، وبما أن صلات الإنسان معها أخذت تتقطع رويداً رويداً، لذلك تقلّص تأثيره في عملية ارتقائها. ولكن الطور التالي لارتقاء هذه الكائنات، هو صيرورتها إلى الحالة الإنسانية.

وعلى مستوى أعلى من التطور تقف قوى الشر العاقلة. فهذه منظمة في تراتبيتها وتؤلف معاً، بأتباعها وطقوسها، مقصورة سوداء.

١- أرواح الهواء والماء. - المترجم.

نزوح الأرواح حسب التعاليم الجديدة

يعدّ نزوح الأرواح (التجسد ثانية)، التقمّص، واحداً من أسس الديانات والمعتقدات الشرقية كلها. فهذا القانون يسهل كثيراً إعطاء تفسير منطقي لكثير من المسائل المبدئية في حياة الإنسان. فالإنسان (الطفل الصغير) على سبيل المثال، يصاب بمرض خطير ويموت. فأين العدل الذي يجب أن يكون على الأرض وفي الكون كله؟ ولكنك إذا ما اعتقدت بنزوح الروح، فإنه من السهل عليك أن ترى أن المرض في هذه الحياة، هو جزاء الآثام التي ارتكبت في حيوات سابقة. بكلمات أخرى، إن ما تزرعه تجنيه، وتجنيه حتماً، وإن لم تجنه فوراً أثناء حياة واحدة. إذاً ليس ثمَّة من يعاقب الإنسان من فوق في حيواته. إنه يعاقب نفسه بنفسه بالأعمال التي يأتيها.

فالإنسان يمتلك الإرادة وحق الاختيار. ويمكن القول: إنه هو الذي يصنع مصيره بنفسه. ولكل فعل من أفعال الإنسان نتائج محددة بدقة، تجرّ عليه العقاب أو تكافئه بالثواب، ونتيجة لهذا يتواصل سير ارتقاء الإنسان. وإذ يأتي الفرد منا أفعالاً خيرة نبيلة، فإنه يتقدم على طريق الكمال، يرتقي إلى درجة أعلى في سلم التقدم.

بيد أن طريق الكمال التام شديدة التعقيد، وطويلة جداً. فحسب التعاليم الشرقية، بما فيها تعاليم الأخلاق الحية، أنه ينبغي على الإنسان في أثناء تقدمه من حياة لأخرى، أن يعبر كل المراحل التي عبرتها البشرية أثناء تاريخها كله. ويتأتى للإنسان أثناء حيواته المتعاقبة أن يغدو كل شيء (بدءاً من الوضيع البائس، حتى الملك).

ونتيجة لتكرار التجسدات مرات كثيرة، يكتسب الإنسان بالتدرج تجربة، ويبلغ الكمال المطلق. ومن هذه اللحظة لا تعود له حاجة للعودة إلى الأرض. ويتابع تأدية عمله، ولكن في إهاب غير فيزيائي. فيتحول إلى شبه إله، ويمارس مع أمثاله من أشباه الآلهة الآخرين، تأثيراً في سير ارتقاء الآخرين الذين لم يبلغوا درجة الكمال بعد. إن الإنسان الذي يقطع أثناء حيوات كثيرة، طريق الارتقاء كلها

بنجاح، ويبلغ درجة الكمال المطلق، يصير إلى معلم. ويؤلف هؤلاء المعلمون حسب التعاليم الجديدة، المقصورة البيضاء العظيمة. إنهم أخوة البشرية الذين يديرون أمر ارتقائها، ويوجهونه في المجرى الضروري.

وتعلل لنا تعاليم نزوح الروح كثيراً مما هو غير مفهوم، أو مما يصعب فهمه من وقائع الحياة اليومية التي تصادفنا. مثلاً، لماذا ينشأ عند والدين طيبين ربيا أولادهما تربية صالحة، أبناء فاسدون؟ على ضوء قانون نزوح الروح يبدو مثل هذا الأمر طبيعياً، لأن الأمر المهم لا يتعلق بمن هم الوالدان الآن، بل بماهية الحياة التي عاشها الطفل من قبل، وبطبيعة النتائج التي حصل عليها. بكلمات أخرى، نحن ننتظر العدل انطلاقاً من حياة واحدة، بينما يجري تحقيقه على امتداد زمني أطول بكثير. كم حياة يعيش الإنسان على الأرض؟

سوف تكون إجابتنا عن هذا السؤال مقطعاً مقتبساً من كتاب «كؤوس الشرق»، (الرسالة 17): «... يجب على الإنسان أن يحقق على كل كوكب، بما فيها كوكبنا، سبع دورات صغرى في سبعة أعراق، وسبع سبعة فروع... ومع ذلك فإنني لكي أوجهك إلى الطريق الصحيحة، أقول: إن حياة واحدة في كل عرق من الأعراق الأساسية تساوي سبع حيوات في كل من الأعراق الفرعية التسعة والأربعين، أو 7×7×7=343، وضف إليها سبعاً أخر. وعلاوة على هذا، عدداً من الحيوات في كل فرع وفريع عرقي، بحيث نحصل في النتيجة على 777 مرة يتجسد الإنسان فيها في كل محطة أو كوكب. ولمبدأ التسريع والإبطاء تأثير يفضي بطريقة ما، إلى إبعاد الأجيال الدنيا كلها والإبقاء، فقط على الجيل الأسمى، لكي يحقق الدورة الصغرى الأخيرة. ولا يستوجب الأمر كله خلافاً بسبب بضعة ملايين من السنين التي يقضيها الإنسان على كوكب واحد. ولذلك فلنأخذ مليوناً واحداً فقط من السنين، وهو المليون الذي خمّنوه تخميناً، واعتمده علمكم اليوم، ونعتمده نحن كبرهة كاملة لإقامة الإنسان على أرضنا في هذه الدورة الكبيرة، فإذا أجزنا أن متوسط أمد الحياة الواحدة مئة عام، يكون الناتج أن الفرد الواحد أمضى أثناء أزمنة حيواته كلها على كوكبنا (في هذه الدورة الكبرى) 77.700 عام فقط، وفي المجالات الذاتية 922.300 عام. أفلا يثير هذا العدد كثيراً إلهام الغيورين جداً من أنصار تعاليم نزوح الروح المعاصرين الذين لا يتذكرون، في أحسن الأحوال، سوى بعض من وجوداتهم السابقة!.

وأنتم إذا أردتم أن تجروا أي حسابات، فتذكروا أننا لم نحسب هنا سوى متوسط الحيوات المسؤولة والواعية. ولم نتطرق لإخفاقات الطبيعة: الخدّج، ومرضى القصور العقلي، وموت المواليد والأطفال في حلقة السنوات السبع الأولى، عداك عن الاستثناءات التي لا أستطيع أن أتحدث عنها. وتذكروا أيضاً أن متوسط أمد حياة الفرد يتباين تبايناً كبيراً تبعاً للدورة العظمى. وأنا على الرغم من أنني كان يجب علي أن أمسك عن البوح بمعلومات عن كثير من

المسائل، إلا أنني رأيت أن الواجب يدعوني لإطلاعكم عليها، إذ ربما تمكّن أحدكم من حل مسألة ما من هذه المسائل بمفرده. حاولوا إذن أن تجدوا حلاً لمعضلة 777 تجسيداً!».

ومن حيث المبدأ، إن كل إنسان يواصل ارتقاءه في كل حياة جديدة، بدءاً من المستوى الذي حققه في الحياة السابقة، أي أنه في تقدم دائم نحو القمة، ولكن سرعة التقدم تختلف من شخص لآخر. وفي المدة الفاصلة بين حياة زمنية وأخرى، يقع الإنسان في حالة انحلال الجسد، على أعلى المستويات العقلية، ويقيم في الديفاتشينا (وفق المصطلحات الهندوسية)، أو في الجنة، وفق المصطلحات المسيحية. وينبغي على الإنسان أن يعبر كثرة من التجسدات لكي يكشف عن مختلف جوانب الوعي، ويُظهر على أكمل وجه، القوة، والجمال، والعظمة الكامنة فيه. هكذا تعلّم الأغني - يوغا.

والآن، وفق أي تتابع تحدث عملية التجسد؟ قبل الولادة الجديدة للإنسان على الأرض، يهبط «جسده الباقي» الذي تخلص من الحياة السابقة بسبب الموت، إلى المقام العقلي الأدنى، بعد أن كان يتكون من مادة تنتمي إلى المقام العقلي الأسمى. ثمَّ يبدأ يبني هنا بمساعدة الكائنات العليا جسداً عقلياً (جسد الفكر)، محيطاً نفسه في أثناء ذلك بمادة المقام العقلي. وبوساطة هذا الجسد العقلي سوف يبدأ هذا الإنسان المولود من جديد، يفكر. وبعد أن يبنى الجسد العقلي، يهبط مع الإنسان المعني إلى المقام الكوني. وهنا يبنى بالطريقة عينها جسد كوني من مادة المقام الكوني. وهذا هو جسد الرغبات نفسه. وبوساطة هذا الجسد سوف يعبّر الإنسان المولود من جديد عن انفعالاته، وأهوائه، ورغباته. ثمَّ يبنى بعد ذلك الصنو الأثيري. ويصنع هذا من مادة المقام الفيزيائي، وهو نسخة طبق الأصل عن الجسد الفيزيائي للإنسان الذي سيولد بعدئذٍ. وربما كان من الأصح أن يدعى هذا الصنو بالنموذج الأصل، لأنه موجود قبل الإنسان الذي يجب أن يولد على صورته ومثاله. فالجسد الفيزيائي للمولود ثانية، يكرر، يصوّر الجسد الفيزيائي للصنو الأثيري. وبعد أطوار الخلق كلها هذه، تأتي لحظة ميلاد الإنسان نفسه.

ومن المهم جداً في هذا السياق، تحديد الأسرة التي سيولد فيها في حياته التالية. وإذا كان هذا قد بلغ في حياته السابقة درجة الوعي العليا، فيترك له حق اختيار الأسرة التي سيولد فيها. أما الذين لم يحققوا سوى درجة أدنى من الوعي، والذين لا يؤمنون بالخلود، ولا يعترفون بنزوح الروح، فإن القوى العليا، أرباب الكارما، هم الذين يقررون أين يولدون. ولكن قرار هؤلاء لا يمكن أن يكون تعسفياً. ووفق قرارهم يجب أن يولد الإنسان الذي لم يبلغ سوى درجة ضعيفة من التطور، في شروط تتوافق توافقاً دقيقاً مع الأعمال التي أتاها في حياته السابقة. وهكذا فإن قانون الأسباب والنتائج، قانون الكارما، هو الذي يضبط كل شيء.

ولكن، أيُّ دور للوالدين في هذه العملية الطويلة لولادة الإنسان الجديد، ابنهما؟ من البديهي أنه دور مهم جداً، فهما اللذان يمنحان صغيرهما الجسد الفيزيائي، جسد الأفعال. فالطفل لا يأخذ من والديه سوى السمات الفيزيائية، التي يتميز بها العرق والقومية اللذين يولد الطفل فيهما. أما ما تبقى فيحمله المولود من جديد معه إلى هذه الحياة. إنه يحمل معه كل ما أتاه من أفعال في حيواته الكثيرة السابقة، وما استحقه عليها. إذاً، إن سعي كل إنسان مولود في الأرض من جديد، سواء كان ولداً أو بنتاً، ليس إلا نتيجة لما جمعه في حيواته السابقة. وأثناء حياته الجديدة، يجب على المتجسد من جديد أن يملأ كأسه حتى التمام، أي يجب أن تتواصل عملية ارتقائه نحو الكمال، ويصعد درجة أو عدة درجات نحو القمة. وحسب الثيوصوفية التي تستند إليها تعاليم الأخلاق الحية، إنه ثمَّة أكثر من مستوى لتقدم البشر. وينتمي إلى المستوى الأعلى من هذه المستويات، كل من أنهى طريق تجسداته، وحقق أسمى درجات الكمال. فهؤلاء لا حاجة لهم بعد الآن، لأن يعيدوا كرات التجسد، لأنهم باتوا أشباه آلهة. والحقيقة أنهم يدعونهم باسم آخر: نصير، أو معلم الحكمة. ويجتمع هؤلاء كلهم في المقصورة البيضاء العظمى، ويقودون معاً ارتقاء الجنس البشري. وما يجب قوله، هو أن هؤلاء ليسوا محرومين إمكانية التجسد في حيوات أرضية جديدة. ولكن، إذا ما فعلوا ذلك، إنما يفعلوه بملء إرادتهم، ولغرض وحيد، هو العمل على تسريع ارتقاء الجنس البشري.

ويقف الناس الذين أدركوا ضرورة الكمال، ويصنعون مستقبلهم عن سابق تدبير ومعرفة، يقفون على الدرجة القبل الأخيرة من سلم الكمال. ويسعى هؤلاء لتسريع عملية ارتقائهم، ولذلك لا يصرفون بين حياتين أرضيتين وقتاً طويلاً في الغبطة، على مستويات الواقع السامية (مع أنهم استحقوا ذلك)، إنما ينغمسون في حياة ثانية مباشرة بعد انتهاء الأولى. وتعاقب الحيوات لدى هؤلاء سريع إلى درجة أنهم لا يبدّلون إهابهم الكوني والعقلي. ويدعى مثل هؤلاء المتطورين جداً، الساعين إلى تحقيق الكمال الذاتي، يدعون «بالذين في الطريق». ويطور كل منهم نفسه تحت إشراف معلم هو الذي يختار لتلميذه الأسرة التي يجب أن يولد فيها، وشروط الحياة التي سيعيشها.

أما الذين يتطورون ويرتقون سلم الكمال بإيقاع أبطأ، فهم يقفون على درجة أدنى من زملائهم السابقين. وقد يمتد الوقت عندهم بين تجسيد وآخر، مئات وربما آلاف السنين. فلا يتسنى لهؤلاء أن يتجسدوا سوى مرتين أو أكثر في كل عرق فرعي. ويبدو الناس في هذا كله إيجابيين جداً: إنهم يعملون على تحقيق أهداف عليا، ويمتلكون مثلاً سامية، ويدركون جوهر وحدة الحياة في الكون، كما يدركون وحدة الجنس البشري كله.

ويقع على مستوى أدنى من التقدم، أولئك الذين لا تتعدى اهتماماتهم حدود دولتهم، وقومهم، وأسرهم. ولا يعرف مثل هؤلاء لا المخيلة ولا المبادرة. وتسير عملية تجسداتهم ببطء شديد. فهم يتجسدون مرات كثيرة في كل عرق فرعي.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن كل إنسان يجب أن يمر في حيواته الأرضية الكثيرة، في هذه الحالات كلها. وعليه أن يعيش على وجه الخصوص، حالة الرجل وحالة المرأة. وتؤكد الثيوصوفيا في هذا السياق، أن الإنسان لا يبقى في الحقل نفسه أكثر من سبع حيوات. ولكن هذا المد لا يمكن أن يكون أقل من ثلاث حيوات متعاقبة. إذاً، في مئات التجسدات يولد الإنسان رجلاً عدة مرات على التوالي، ثمَّ مثلها تماماً امرأة.

وشاع أيضاً تصور مؤداه أن الإنسان قد يتجسد في حيوان أو نبات. لكن مثل هذا الزعم يتعارض مع التعاليم الحقيقية للأغني - يوغا، التي تؤكد على أن الإنسان لا يتجسد إلا إنساناً. والحقيقة إنه حسب هذه التعاليم، أن الممالك الدنيا في الطبيعة (مملكة الحيوان، ومملكة النبات)، تتجسد كذلك. وهاكم المبدأ: «كل ما هو موجود، يعيش، وكل ما يعيش له جسد وروح، ولكن كل جسد دائم الموت، وكلّ روح دائمة الولادة (تتجسد)». ويرون في هذا السياق، أنه بينما للإنسان روح فردية خاصة به، تتطور نحو الكمال محققة بذلك صالح البشرية كلها، فإن النباتات والحيوانات لها روح نوعها. ولذلك، بعد أن يموت الجسد الفيزيائي للنبات أو الحيوان. يعود هذا إلى روح نوعه. والغرض من ذلك، هو الاستزادة من الخبرة من أجل حيوات آتية.

لقد وصفنا هنا بالتفصيل أطوار عملية التجسد نفسها قبل أن يولد الإنسان إلى الحياة الزمنية الجديدة. فكيف تحدث إذن العملية المعاكسة: التخلص من الجسد؟ حسب تعاليم الأغني - يوغا، أن العملية تحدث على الوجه الآتي. عندما يقع ما ندعوه نحن موتاً، تغادر الروح الجسد الفيزيائي. ويخرج الصنو الأثيري منفصلاً عنه، وهذا الأخير هو القالب الأم الذي صنع وفقه الجسد الفيزيائي. وثمَّة من الناس من هو قادر على رؤية الصنو الأثيري في الأيام الأولى التي تلي الدفن، فيظنون أنه روح المتوفى أو شبحه. ولكن هذا ليس في واقع الأمر إلا الظل المسالم للجسد الفيزيائي. ولا يلبث هذا الظل أن يتلاشى في الهواء من غير أن يترك أثراً. وبعد ذلك يصل الإنسان إلى العالم الكوني غير المنظور. وإذ يكتسب الإنسان جسداً كونياً، يحس بنفسه في العالم الكوني إحساساً واقعياً، تماماً كما كان يحس بنفسه في العالم الفيزيائي عندما كان له جسد فيزيائي. ولكن خلافاً للعالم الفيزيائي، لا يستطيع الإنسان في العالم الكوني أن يحقق رغباته (التي يحس بها كما في العالم الفيزيائي)، لأنه لا يمتلك أداة تحقيق الرغبات، أي الجسد الفيزيائي. ومن الواضح طبعاً أن الحديث يدور عن رغبات الطبيعة الفيزيائية. وليس الحرمان من تلبية الرغبات الفيزيائية سوى جهنم نفسها، ولذلك

من الأفضل أن تترك هذه الرغبات خارجاً لدى الولوج إلى العالم الكوني. وهذا ما يستطيع المحتضر أن يفعله: عليه أن يركز تفكيره على الرغبات التي يمكن تحقيقها في عالم عقلي أكثر سمواً. والحقيقة أن وجود الإنسان في العالم الكوني، يعد وجوداً عابراً، مؤقتاً يمضي الإنسان بعده إلى العالم العقلي. فأمد وجود الإنسان في العالم الكوني مرتبط به نفسه (بمآثره)، وقد يكون وجوده فيه محروماً من تلبية رغباته الفيزيائية، أسوأ من وجوده في جهنم نفسها؛ وقد يمتد هذا أياماً، وسنين، ومئات السنين، وربما آلاف السنين. إنه فعل قانون السبب والنتيجة، قانون الثواب والعقاب: ينال الإنسان تلقائياً لقاء ما فعل في الحيوات السابقة.

وأخيراً عندما يرمي الإنسان عنه الجسد الكوني، يهبط إلى أدنى مقامات العالم العقلي. ومرة أخرى يرتبط وضعه بمستوى تطوره الروحي. فالجسد الكوني لا يغادر الإنسان فوراً، ولا يتركه نهائياً. فقد يتأخر بعض الوقت استجابة للانفعالات العاطفية التي يعانيها أقارب المتوفى حزناً عليه. وقد يساهم المتوفى نفسه في تأخير رحيل الجسد الكوني؛ بأسفه على مغادرة الحياة الدنيا. وغالباً ما يرى بعضهم في تجلي «الإهابات» المرمية، ظهوراً لروح المتوفى. وفي أحيان كثيرة «يتحدثون» إليها أثناء جلسات استحضار الأرواح. لكنهم في واقع الحال عاجزون عن قول أي شيء عن العالم الآخر، وليس لديهم أي معلومات إلا عن الحياة التي عاشها المعني على الأرض.

أما روح الميت نفسها فإنها تكون في هذا الوقت بعيدة، ولا تشارك في تسالي استحضار الأرواح. ومع الوقت تتناثر الإهابات التي يرميها المتوفى، كما يرمي عنه أيضاً الإهاب التالي الذي يتألف من مادة المقام العقلي الأسمى، أي الجنة. ويكتسب هنا جسداً أيضاً، لكن رمي هذا الأخير غير ممكن؛ لذلك يدعى هذا الجسد بالجسد الدائم. وهو يبقى وعاء الجوهر الحقيقي للإنسان. ويمكن أن يدعى روحاً أو إدراكاً. وتدعوه تعاليم الأغني - يوغا بالمبدأ الخامس ولكن هذا الجسد الدائم، روح الإنسان لا يعد جسداً نهائياً غير قابل للتجزئة. ففيه تقيم روحنا، «أنانا» التي اكتست إهاباً آخر من المقام الأسمى. وهذا الإهاب الجديد هو وعينا وإذا أراد الإنسان، فإنه يستطيع في تطوره اللاحق أن يرمي هذا الإهاب أيضاً، أي الجسد الدائم، ولا يبقى عندئذٍ سوى الوعي.

ويطلق كل إهاب من الإهابات البشرية إشعاعات تشكل الآورا. والآورا هي ضرب من ضروب الملابس. وبقدر ما يكون التطور الروحي للإنسان أرقى، بقدر ما تكون آوراه أكثر وأغنى من حيث تنوع الإشعاعات. وتعد آورا الإنسان مؤشراً على تطوره الروحي.

وكما تتمايز العوالم الثلاثة: الفيزيائي، والكوني، والعقلي، كذلك تتمايز أنواع العقل الثلاثة: الأدنى (الغريزة)، والأوسط (البصيرة)، والأعلى (القدرة على نفاذ البصيرة). وهذه الأنواع الثلاثة متفاعل بعضها مع بعض، وغالباً ما ينتقل واحدها إلى الآخر. ويمكننا القول: إن العقل الغريزي: هو عقل الماضي (عقل الحيوانات والمتوحشين)، وعقل البصيرة: هو عقل الحاضر، والعقل النافذ البصيرة: هو عقل المستقبل.

وتنطوي معضلة نزوح الروح على سؤال شديد الأهمية: إذا كان الإنسان يعيش حيوات كثيرة ليحقق الكمال الذاتي، ويراكم التجربة، فلماذا لا يتذكر شيئاً سوى أحداث حياة واحدة وحيدة؟ ويفسر هذا على الوجه الآتي: إن أحد أعضاء الجسد الفيزيائي: الدماغ، هو حامل الوعي. وفي حالته الجديدة لا يستطيع هذا أن يعرف شيئاً عن الحيوات السابقة. ولكن معلومات الحيوات السابقة لا تندثر مع موت الجسم الفيزيائي والدماغ في كل مرة، بل تبقى مقيمة في الجسد الدائم. وقد جاء في التعاليم، أن هذه المعلومات تبقى أثناء حياة الإنسان في جسمه الفيزيائي، محفوظة في داخل «كأس» تقع قرب قلبه. بيد أنها لا تصل من هناك إلى الدماغ. وهكذا يسقط التناقض، إذ بما أن «الجسد الدائم» للإنسان يحفظ معلومات حيواته السابقة كلها، حتى اللحظة التي يبلغ الإنسان فيها الكمال المطلق، ولا يرميه هو أيضاً. إلا أنه لن يكون لهذه المعلومات أيّ لزوم للإنسان وقتئذٍ، ويثير الاهتمام في هذا السياق، وصف طريقة نقل المعلومات عبر الإهابات كلها، إلى الجسد الدائم. «في أثناء حياتنا في الجسد الفيزيائي تتوجه كل انطباعات الحياة الخارجية التي نتلقاها بوساطة أجهزة إدراكنا عبر العامل الفيزيائي للوعي، أي الدماغ، تتوجه في صيغة استجواب إلى سيد الإهابات كلها: أنانا. فيسجل حامل وعي الجسد الكوني، جسد الأحاسيس والانفعالات، ما تلقّاه الجسد الفيزيائي، سواء كان سارّاً أم غير سار، ويبعث به إلى الأبعد، إلى الجسد العقلي. وبعد أن يسجّل حامل وعي الجسد العقلي شعور الجسد الكوني، يبعث به إلى الجسد الدائم. وهنا في هذا الأخير يولد القرار، الذي ينقل عائداً إلى الوعي الفيزيائي بصيغة إجابة عن السؤال المعطى، لكي يتحدد بناءً على ذلك اعتماد هذا الفعل أو ذاك. وتتواصل هذه المراسلات بين الوعي الفيزيائي والجسد الدائم، أثناء حياة الإنسان كلها من غير توقف، طالما يؤدي الوعي وظائفه».

ونشير في سياق حديثنا هذا إلى أن كتاب «الأغني - يوغا» يقول: إن الأطفال يتذكرون في أعوامهم الأولى كثيراً من أحداث حيواتهم السابقة: «يمكننا أن نلاحظ لدى الأطفال نظرات غريبة سريعة، إنهم بالتأكيد يرون شيئاً ما مبهماً. وهم على أي حال يقولون شيئاً ما عن حريق وعن نجوم، وعن أضواء. وغني عن البيان أن المربيات يرين في هذا مرضاً أو هذياناً، لكن الانتباه يجب أن يتركز على هؤلاء الأطفال بالذات، ومن المعروف أن الأطفال الصغار السن يمكنهم أن يروا الصور الكونية بسهولة ويسر؛ زد إلى هذا إن

المرهفين منهم على وجه الخصوص، يرون الأنوار الفضائية. ومن الأجدر مراقبة مثل هذه الكائنات الحية عن كثب منذ الأيام الأولى، وكونوا على ثقة إنه قد وضعت فيهم إمكانات الأغني - يوغا، وإذا ما هيئت لهم بيئة نقية، فإنهم سيقدمون المثال الأكمل للإمكانات».

قانــون كــارما

لقد كان إحساس الإنسان بالحاجة إلى العدالة، ملازماً لـه علـى الـدوام. لـذلك عبد الناس في الغرب الإلهة نمسيس، وفـي الشرق كارمـا. فكارمـا - نمسيس هـي مرادف العناية الإلهية. وكانت ي. بلافاتسكايا قد كتبت تقول: «ليس لنمسيس أي صفات؛ فهذه الإلهـة إلهـة مطلقـة، قاطعـة، مبرمـة، إنهـا كالمبدأ، لكننـا نحـن أفراداً وأممـاً نطبّقـه ونعطيـه الـدافع الـذي يوجهـه. فكارمـا - نمسـيس هـي التـي خلقـت الشعوب والبشر، ولكن بما أن هؤلاء قد خلقوا وانتهى الأمر، فإنهم هم الذين يصنعون منها إلهة متسلطة، أو ملاكاً يكافئ».

وكما أنه ليس للإلـه صفات شخصية (إنـه قـانون)، كذلك كارمـا - نمسيس لا صفات لها. وفاعلية المبدأ، قانون الأسباب والنتائج، هي فاعلية قطعية ومبرمة لا رادّ لهـا. «لـيس حكيمـاً مـن يظـن أن بإمكانـه أن يسترضـي الإلهـة بـالقرابين والصلوات، أو من يعتقد أن عجلتها يمكن أن تحيد عن الطريق التـي اختطتهـا قيد شعرة... فلا رجعة عن الطريق التـي تجري عليهـا، لكننـا نحـن الـذين ننسـج هذه الدروب، لأننـا بأنفسنا، أفراداً وجماعـات نحـددها... إن كارمـا - نمسيس تحـرس الصالحين وترعاهم في هذه الحياة والحيوات المقبلـة؛ وتعاقب الأشرار حتـى قبل أن يتجسدوا تجسدهم السابع: في الحقيقة، إلى أن يكفّروا تماماً عن كل الآثـام التـي اقترفوهـا. لأن مطلـب كارمـا الوحيـد الأبـدي الثابـت الـذي لا يتبـدل، هـو الانسـجام المطلق في عالم المادة، مثلما هو موجود في عالم الروح. وعليه ليست كارما هـي التي تكافئ وتعاقب، بل أنفسنا نثيب أنفسنا أو نعاقبهـا، فـالأمر كلـه مـرتبط بمـا إذا كنـا نعمـل متعـاونين مـع الطبيعـة، وفـي الطبيعـة، وبوسـاطة الطبيعـة، خاضـعين للقوانين التي يرتبط بها هذا الانسجام، أم أننا ننتهكها».

ومراعاة الإنسان لقوانين الانسجام، أي لقوانين الطبيعة والكون، تماثل إقامة علاقات أخوية مع الناس الآخرين «أحبب قريبك كنفسك». «لو لـم يفكـر الإنسـان أن يتسبب بالأذى لأخيه الإنسان، لما كان لكارما - نمسيس ذريعة لتظهر، وسلاح تستخدمه. فوجود مختلف عناصر الصراع والمواجهة علـى الـدوام بيننـا، وانقسـام

الشعوب، والقبائل، والمجتمعات والأفراد، إلى قابيل وهابيل، إلى ذئاب وحملان، هو السبب الرئيس، لطرق العناية الإلهية،... إننا نقف مذهولين أمام خفايا أعمالنا، وألغاز الحياة التي لا نرغب في حلها... ولكن الحق هو أنه ليس في حيواتنا حدث واحد، ولا يوم تعس واحد، أو رزية واحدة، إلا ويمكن تتبعها رجوعاً، وردها إلى تصرفاتنا نحن في هذه الحياة أو الحيوات الأخرى. وإذا ما انتهك أحدهم قوانين الانسجام، أو «قوانين الحياة»، فإن عليه أن يكون مستعداً ليغرق في الفوضى التي صنعها بنفسه... فالإنسان هو منقذ نفسه، وهو مدمر نفسه» (ي. بلافاتسكايا).

وإذا كنا نعرف القانون جيداً، ونفهمه جيداً، فإننا نستطيع أن نتلاءم معه، أي ألا ننتهكه. أما إذا كنا عاجزين عن فهم القانون، فإننا توافقاً سنرى في كل ما يحدث سلسلة من الأحداث الطارئة، التي تتوافق توافقاً ضعيفاً مع مبادئ العدالة والمجازاة.

وإذا ما تحدثنا عن العدالة على المستوى الكوني، فإن فاعلية قانون الكارما هي التي تحققها.

أما التعاليم الجديدة فإنها تدعو إلى أن تُستبدل بالندم والتوبة عن الأفعال السيئة، تأدية أعمال خيّرة عن كل فعل سيء. وقد قيل عن هذا ما يلي: «أما من أدرك حماقته، فإن عليه أن يعوّض عنها بعقلانية حقيقية. فاستنفاذ الحماقة بالتعاون العقلاني أمر ممكن». والحقيقة أن كلمة «كارما» نفسها تعني باللغة السنسكريتية: «يؤدي عملاً». ولا تكتفي الفلسفة الشرقية بإلحاق نتائج عملنا وحدها بمفهوم الكارما، إنما تلحق العمل نفسه كذلك. ولذلك فإنه يمكن القول: إننا نخلق كارمانا على نحو متواصل، لأننا لا نكف لحظة واحدة عن فعل شيء ما.

فارتقاء الإنسان يجري وفق قوانين محددة، أهمها قانون نزوح الروح، وقانون كارما ومعرفة هذين القانونين معرفة دقيقة، أمر ضروري: «أليس من الأفضل أن تجعل ارتقاءك واعياً، بدل أن تتقدم إلى الأمام تحت ضربات سوط كارما».

والارتقاء ليس أي تطور يأتيه الإنسان، فهو ليس سوى ذلك التقدم الذي يسير نحو الأفضل، نحو بلوغ الكمال، نحو تحقيق الانسجام مع العالم المحيط كله. أما الحركة نحو الأدنى وانتهاك الانسجام، والقوانين الكونية، فهي ليست سوى حركة تقهقر. والتعاليم الجديدة تدرس مغزى الارتقاء في سياق الصراع المادي والروحي في داخل الإنسان. ويرون أن الغاية من الارتقاء هي السيطرة عليه وروحنته. بكلمات أخرى، إن الغاية من الارتقاء، هي تحويل المادة من حالتها الدنيا إلى حالة سامية. ويقوم الصراع بين المادي والروحي في الإنسان، في سعي المادة الخاملة المشوّشة المختلة، لابتلاع الحالة السامية وتدميرها، أي تدمير ما حققته الروح على وجه التحديد. وقد ألقت القوى العليا على عاتق الإنسان إنجاز مهمة تحويل المادة وروحنتها.

وفي الحياة البشرية تقوم علاقة التناسب بين المادة (الفيزيائي) والروح، في الآتي: تخرج «أنا» الإنسان من مصدر الحياة الأول، وهي تحمل حالة روحية عالية. بيد أنها لا تمتلك أي وعي. فلا يمكن للوعي أن يتطور إلا في المادة. وتغرق «أنا» الإنسان في المادة باثة الروح فيها عبر وعيها. ولكن تطور الوعي في الإنسان غير ممكن إلا على قاعدة مادية، ولذلك فإنه سيترافق بالضرورة بخسوف الحالة الروحية. وهكذا يقف الإنسان في حياته أمام مشكلة غير سهلة: عليه أن يبث بوعيه، الروح في المادة، وأن يفعل ما في وسعه لكي يرتقي بحالته الروحية. وعندما يرجع في آخر حياته إلى المصدر البدئي، فإن عليه أن يكون حاملاً معه حالة روحية ووعياً. يجب عليه أن يعود من حيث أتى. فخط مسيره مغلق يشكّل دائرة. ويقال إن الإنسان يحقق دورة حياتية كاملة.

وإذا ما فصّلنا في عملية روحنة المادة هذه، والجهد الذي يبذله الإنسان لإنتاج الوعي والروح، فإن المخطط (الهندسي) يبدو على الصورة الآتية: لنرسم دائرة (دورة حياة الإنسان كاملة)، ثمَّ نقسمها بمستقيمين، عمودي وأفقي، إلى أربعة أقسام متساوية. أول ربع من طريقه، من دورة حياته الكاملة، يدخله الإنسان أعمق فأعمق في قلب المادة. إنها مرحلة الطفولة والمراهقة. ولا وجود لكارما في هذا الطور، لأن الإنسان يتصرف بغير وعي (أو تقريباً بغير وعي)، ولذلك لا يمكن في الحساب العام أن يكون مسؤولاً عن تصرفاته. ولا تبدأ كارما إلا منذ اللحظة التي تتوازن فيها في الإنسان، الروح والمادة. إنها لحظة التحول من الربع الأول إلى الربع الثاني، من «رعونة الطفولة» إلى الحياة الواعية. وعندما نعبر نصف الدائرة، نصل إلى النقطة التي لا وجود لكارما بعدها (كما هي الحال في طور الطفولة)، وسبب عدم وجود كارما هنا، هو أن الإنسان يكون قد بلغ أثناء ما مضى من حياته مستوى من التطور الروحي، يؤهله لأن يحجم عن سابق وعي عن التصرفات التي يمكن أن تخلق كارما سلبية سيئة. وثمَّة حضور واسع في الديانات والفلسفات الشرقية لصورة كارما التي وصفناها هنا. وغالباً ما يقارنونها بالدوران الدوري للأرض حول الشمس. وتتماثل في مثل هذه المقارنة لحظتا الانقلاب الشتوي والصيفي، مع بداية طريق الإنسان ومنتصفها. كما يتماثل المستقيم الذي يصل بين هاتين النقطتين، مع مستقيم الدورة الكاملة الذي يفصل بين مقطع حياة الإنسان الذي يحدث الارتقاء أثناءه، ومقطعها الذي يتوقف الارتقاء فيه. ويستخدم مثل هذا التصور (في صورة دوائر)، لتحليل ارتقاء البشرية كلها. وفيما يتعلق بالبشرية كلها فإنها تنهي الآن الربع الأول من دورة حياتها الكاملة، أي أنها بدأت للتو حركة ارتقائها. وحسب المخطط العام، فإنه يجب عليها أن تبدأ الآن روحنة المادة، عبر تطوير وعيها إلى الأحسن.

أما تقدم الإنسان على الكوكب، فإن المعلم يصفه في «كأس الشرق الرسالة 17»، على الوجه الآتي: «وهكذا، فإنه لدينا الآن: الحلقة الأولى: الكائن الأثيري، كائن من غير عقل، لكنه على درجة عالية من الروحانية. وفي كل عرق أصل،

أو عرق فرعي، أو عرق من أعراق الارتقاء الصغيرة التالية، يتطور الإنسان العتيد مقيداً أكثر فأكثر في الجسد، أو في كائن متجسد؛ لكن الحالة الأثيرية تبقى هي الغالبة. ومثله مثل الحيوان والنبات، فإن الإنسان العتيد هذا، ينمّي جسداً وحشياً يتوافق وبدائية المحيط كله.

الحلقة الثانية: يبقى الإنسان أثناءها أثيرياً وبأحجام عملاقة، لكنه يزداد تكثيفاً في الجسد، أي يغدو إنساناً أكثر فيزيائية، إلا أنه أقل عقلانية منه روحانية، لأن ارتقاء العقل عملية أكثر بطئاً وصعوبة من ارتقاء البنية الفيزيائية، فالعقل لا يرتقي بالسرعة التي يرتقي الجسد بها.

الحلقة الثالثة: للإنسان الآن جسد محدد تماماً أو مكتف، في الأول على صورة قرد عملاق، أكثر عقلانية (أو الأصح، أكثر فطنة)، منه روحانية. لأنه بلغ على المنحنى المنحدر، النقطة التي تخسف فيها روحانيته، أو يحيط الغبش ببصيرته الناشئة. وفي النصف الأخير من هذه الحلقة يتناقص جسده العملاق، وتتحسن أنسجته، ويغدو الإنسان نفسه كائناً أكثر تعقلاً، مع أنه لا يزال قرداً أكثر منه إنساناً.

الحلقة الرابعة: يحقق العقل في هذه الحلقة تقدماً كبيراً جداً. وتكتسب الأجناس البكماء كلامنا البشري، وابتداء من العرق الرابع، يطرأ تحسن على اللغة، وتتضاعف معرفة الظاهرات الفيزيائية».

لقد بدأ الإنسان ينشئ الكارما منذ اللحظة التي رجح فيها الميزان لصالح المادة على الروح. ففي هذا الوقت كان الإنسان قد فقد نهائياً مؤهلاته العليا. وفي هذا الوقت عينه، وقع انفصال العنصر الذكري والأنثوي. ونتيجة لذلك تحول الإنسان من جوهر موحد إلى روح ثنائية. وكان هذا كله قد وقع في منتصف العرق الثالث من دورتنا هذه.

ونحن يجب علينا أن ننظر بالتفصيل في مسألة تنصيف الإنسان. فقبل أن تنقسم ماهيته كان الإنسان يمتلك العنصرين، الإيجابي والسلبي معاً (أي الذكري والأنثوي). وقد أطلقت المصطلحات الغيبية على هذا الكائن اسم، أندروجينوس. وتميّز هذا بكمال تنظيمه الروحي، ووحدة جوهره الداخلي. ولم يعرف أي شيء عن المساعي الأزلية الجامحة. ففي رسالتها المؤرخة في 5 أيار من العام 1934م، كتبت يلينا ريريخ تقول: «إن للتعاليم عن الأرواح الثنائية أساس، وكأنها تضع حداً لرمز الأندروجينوس. فرموز الأندروجينوس تهدف كلها إلى الإشارة بضرورة وجود العنصرين في النظام الكوني، في تجلياته كلها، من أجل الحياة والتوازن، لأن وحدة العنصرين واندغامهما أرسيا في القانون البدئي... ومع التمايز يقع انفصال العنصرين، وينطلق هذان في مجالات متباعدة، ويجب على المغنطيس المرسى في العنصرين أن يوحدهما من جديد على امتداد أيونات الصيرورات وتحولات التطهير. وهذه هي الخاتمة العظمى، أو تاج النظام الكوني».

إن ما يدعى في التعاليم الجديدة، انفصال العنصرين (الذكري والأنثوي)، موجود في التعاليم الدينية الأخرى، لكن له فيها وصفاً آخر. فقد ورد في النص التوراتي: «لقد أنزل الرب على آدم مناماً قصيراً، ولما نام أخذ الرب ضلعاً من أضلاع آدم وخلق حواء منه». وجاء في التلمود: «في البدء كان الرجل والمرأة جسداً واحداً ووجهين، وعندئذٍ شطر الرب جسدهما إلى اثنين، ومنح كلاً منهما عموداً فقرياً».

ولحظة ظهور العنصرين المنفصلين، الذكري والأنثوي، أخذت تنشأ الكارما البشرية. ومنذئذٍ أخذت المادة تتفوق في الماهية البشرية على الروح، وفقد الإنسان مؤهلاته الروحية العليا نهائياً. ونشير في السياق إلى أن الخطيئة الأصلية التي ارتكبها آدم وحواء، قد وقعت في هذه اللحظة من تاريخ الجنس البشري، ووقتئذٍ طرد الإنسان من الجنة.

وحسب التعاليم الجديدة أن الإنسان خسر كثيراً جداً من جراء انفصاله إلى عنصرين، ذكري وأنثوي. لقد فقد وحدته، وفقد قدرته الجبارة على المقاومة، وقابليته للحياة، التي كان يملكها من قبل، وغدا غير متوازن، غير ثابت وغير راض. وأخذ وعيه لقصوره يمضّه. هذا كله دفع الإنسان إلى الاتحاد مع عنصره المفقود.

فبعد انفصال العنصرين تبدل الإنسان نحو الأسوأ، إذ وجّه نشاطه كلّه لتلبية حاجات طبيعته الجديدة، وإرضاء رغباته وأهوائه المستجدة. فظهرت فيه رغبة الاستيلاء والتملك. لقد نمت الأنانية في الإنسان بمعيارها الكامل، وعرف الشر بتمامه. ومنذ اللحظة التي أدرك الإنسان فيها الشر، بدأ ينتج كارماه. وسوف يتواصل إنشاء الإنسان للكارما إلى أن يعي أن هذا كله، ليس سوى سراب لن ينال منه إلا الآلام والخيبات؛ وأن الجري وراء هذا السراب، هو مصدر الكارما الرديئة السلبية. فالسعي نحو العنصر المضاد، يجب أن يتراجع أمام السعي نحو تحقيق الكمال الذاتي.

ومع انتهاء الدورة الكاملة يعبر الإنسان والبشرية كلها، عصوراً من الارتقاء وأخرى من التراجع. وتتعاقب أثناء ذلك أطوار الصعود والانحدار. وهذا هو المغزى الفلسفي لكل ما يجري في هذا العالم: فلكي تتوحد يجب أن تنفصل، ولكي تجد يجب أن تفقد، ولكي تبلغ الكمال، يجب أن تعي النقص. ففي أطوار التداعي ينفصل الإنسان عن مصدر الحياة الأول، عن المطلق. وفي أطوار الارتقاء يقترب منه. وعبر هذه وتلك من الأطوار يعبر الإنسان في حيواته الكثيرة طريقاً طويلة تمتد بين شبه الحيوان في بدايتها وشبه الإله في نهايتها.

ويتكون الإنسان من ثلاثة عناصر: حيواني، وبشري، وإلهي - بشري. يوافقها الجسد، والنفس، والروح. ويمكننا تبعاً لهذا أن نميّز ثلاثة عصور مديدة في حياة الجنس البشري، يمتد كل منها ملايين السنين.

العصر الأول، وهو طريق الإنسان البدائي بصفاته كلها، وغلبة الحالة الحيوانية في بداياتها، وظهور تباشير الوعي الإنساني في آخرها.

العصر الثاني، وهو الطريق البشرية. إذ يتنامى الإدراك والعقل، والنفس في الإنسان. ونحن نعبر الآن إلى نهاية هذا العصر. أما العصر الثالث، عصر الإنسان الإلهي - البشري، فلا يزال في المجهول. ولا يبدأ بالنسبة للإنسان قبل أن يقرّ هذا الأخير بمنشئه الإلهي. وعندئذٍ يضع الإنسان نصب عينيه غاية، هي بلوغ أعلى مستويات الوعي، وأسمى مستويات الروحانية.

وكما أشرنا سابقاً، فإن عجلة تقدم البشرية تسير بفضل القوانين الكونية، والقانون الرئيس بينها، هو قانون نزوح الروح، ثمَّ قانون كارما (قانون الأسباب والنتائج). وتحقق أخوة البشرية هذين القانونين. فهذه الكائنات السامية هي التي تحمل عبء العناية بكل منا. وهي التي تحدد لنا زمن التجسد في حياة جديدة، وشروط هذا التجسد، هي التي توقظ وعينا، وتعلمنا أن نميز بين الخير والشر.

وما ينبغي أن نأخذه بالحسبان، هو أنه ثمَّة عدة أنواع للكارما: الكارما الشخصية، والكارما الجماعية، والكارما الشعبية، وسوى ذلك من أنواعها. لكنها تنشأ كلها في عملية تفاعل مديدة، تجري بين جماعات بشرية أعدادها متباينة. وهاكم بيان ذلك في هذا المقطع من كتاب «أغني - يوغا»: «لم يحدث ألا تهجع الآورا القديمة للتجسدات السابقة. لا سيما عندما تصحب كارما أتباعاً غير محبذين. ولكن عندما ينتهي كل لقاء، تحل لحظة من الارتياح، تماماً كإعادة ما للغير. وما لا يقل عن نصف اللقاءات الزمنية يصدر عن التجسدات السابقة. ونحن يمكننا أن نتخيل كيف تتلاصق الحلقات الصغيرة تحت ضغط التوتر الكهربائي العالي.

وينشئ تطبيق الكارما بصورة واسعة، مركّبات معقدة، كأنها قرابة ثنائية وثلاثية. ولكن خير لك أن تكون ممن يؤدون لا ممن يتلقون، لأن كل تأدية تنهي الماضي، بينما التلقي يمكن أن يعيد الارتباط من جديد».

إن الإنسان هو الذي يصنع كارماه، لأنه يملك حرية الإرادة وحق الاختيار. والحقيقة أن الإنسان دائماً أمام خيار بين «الأنا» الأعلى، وطبيعته الدنيا. ومثل الإنسان في هذا مثل المؤشر المغناطيسي، يتراوح بين القطبين. وفي غضون ذلك تتجمع أفعاله، وتصرفاته، وحتى أفكاره كلها، وتنشئ في العوالم ذات الصلة، نتائج متكافئة. وهذه هي بالضبط عملية إنشاء الكارما التي تحدد حياة الإنسان المقبلة.

ولكي يستطيع الإنسان أن يختار طريقه بصواب، ويبني تصرفاته بما يتوافق والقوانين الكونية، يجب عليه أن يعرف هذه القوانين أولاً. فالنقص في المعرفة والفيض في الشك، هما سبب كثير من الأخطاء التي يرتكبها الإنسان، وهذه الأخيرة هي التي تستدعي بناء كارما سيئة. ويصنع الإنسان الكارما في ثلاثة عوالم في الآن عينه: في العالم الفيزيائي، والعالم الكوني، والعالم العقلي، أي

بتصرفاته، ورغباته، وأفكاره. ويجب أن يقود هذا الواقع إلى أفكار محزنة، ولكن التراتبية تقول: «الحقيقة هي أن الكارما ليست مخيفة إلا لمن يغرق في البطالة، ولكن الفكر المندفع الساعي، يتحرر من عبء الماضي، وكالجسد السماوي، يندفع لكنه لا يكرر طريقه. وهكذا حتى إذا كنت تحمل كارما ثقيلة، فقد تظهر انعتاقاً مفيداً». وورد هناك أيضاً: «في كل حياة يستطيع الإنسان أن يطفئ ذلك الجزء من الكارما القديمة، الذي يدركه في تجسده المعني، ومن البديهي أنه يبدأ في اللحظة عينها كارما جديدة، ولكن مع وعي رحب وتفكير نقي يمكنه أن يتجاوز الكارما التي راكمها بصورة أسرع، وسوف تكون الكارما الجديدة التي يصنعها، ذات نوعية أسمى. زد إلى هذا أن الكارما القديمة لن تشكل مصدر خوف بالنسبة إليه، لأن التفكير النقي، والآورا النقية يرتكزان للضربات العكسية بطريقة مغايرة تماماً. وبشكل رئيس يمكن للإنسان أن يخرج من حلقة الكارما التي بدت كأنها مسحورة، لكن المقصود هنا طبعاً، هو الكارما الأرضية التي تقيده إلى الأرض، لأن الكارما لا يمكن أن تتوقف طالما هناك وعي وفكر. إن الكارما التي تسير مع القوانين الكونية، سوف تتسامى في كيفيتها إلى ما لا نهاية، منخرطة في حلقات جديدة خارجة منها، وهكذا دواليك».

ويستفاد مما قيل، إن الإنسان قادر على أن يتجاوز كارماه إذا ما سعى بدأب ليبلغ الكمال الروحي، ويطور قواه الروحية، ويوجه هذه القوى كلها لخير القريب، وفائدة الارتقاء. ولا يهلك الإنسان في أثناء ذلك كارماه السيئة وحسب، بل يحرر البشرية كلها من نتائج كارما سيئة.

وما الذي يحدث للكارما عند انتقال الإنسان من العالم الفيزيائي إلى العالم الكوني؟ في هذه الحال تتوقف كارما الأفعال، لأنها مرتبطة بالعالم الفيزيائي. وتبقي كارما الرغبات المرتبطة بالعالم الكوني، وكارما الأفكار المرتبطة بالعالم العقلي. وهناك مستويات شتى للعالم الكوني. وبقدر ما يكون المستوى أعلى بقدر ما يكون أقرب إلى المطلق! ولكن إلى أي مستوى يصل الإنسان المعني، فإن الأمر مرتبط بدرجة تطوره الروحي. فمن كان في حياته ينفي نفياً تاماً وجود العوالم غير المرئية، فإنه محكوم عليه أن يعمه في ظلمات العالم الكوني. وفي الحال عينها يتجسد في الحياة الجديدة. وهو لا يستطيع أن يغيّر وعيه، ويرفع من مستوى تطوره الروحي، إلا في الحياة الأرضية، وهذا ما يتعارض تماماً مع التصور الشائع، الذي يزعم أصحابه، أن الإنسان عندما يصل إلى العالم الآخر، يُكشف له كل شيء، ويرى ويعرف كل شيء. فهناك فقط يستطيع أن يعرف ما الذي سعى إليه في حياته الزمنية.

ونحن قلنا سباقاً، إن قوى النور، القوى السامية هي التي توجه عملية الارتقاء. بيد أنها لا تتدخل قط في كارما الإنسان. ولكنها غالباً ما تأخذ على عاتقها كارما الأخطاء البشرية، ضلال البشر وجرائمهم. وبهذه الطريقة تعتق القوى السامية الجنس البشري من الكارما السيئة. وحسب التعاليم، أن المسيح

واحداً من هؤلاء الذين كفّروا عن آثام البشر. فمن وقت لآخر يظهر مثل هؤلاء المخلصين في عالمنا، ويدفعون ارتقاء البشرية إلى الأمام.

وتقول «الأغني - يوغا» عن المخلّصين: «للتعاليم عن المخلّصين ملحقات في الوجود كله حقاً، كما يمكن أن تؤثر وتتقرب بوساطة الأيقونات، كذلك يمكن أن تأخذ كارما الآخرين على عاتقك عبر الوعي. لاحظوا كيف أمكن في ظل الخبرات الضعيفة تحمّل ألم الآخرين، إذا تعلق الأمر بميدان الأعصاب. وعلى هذا النحو تماماً، يمكن أن تأخذ على عاتقك كارما الآخرين. ويمكن في آخر الأمر تحمّل كارما الجماعة: بهذا لن تكون تسمية مخلّص مجرد معتقد خرافي. فكل ما في الأمر إنه يجب وعي أهمية قبول تحمل وزر الآخرين».

وتشير التعاليم إلى ثلاثة ظروف قادرة على أن تثقل الكارما كثيراً. وهي: العزوف عن المعلّم، والارتياب في أن الصلة التراتبية يمكن أن تسبب الأذى، ثمَّ التهرب من تكليف ذي شأن.

ويؤلف الذين حققوا حالة أشباه الآلهة تراتبية معينة. ولذلك يدعى كل منهم حبراً (ايراش)، وهو واحد ممن يوجهون ارتقاء البشرية.

وتتنبأ تعاليم الأغني - يوغا بحلول عصر جديد للنار سوف يحوّل الأرض ويطهّرها من النفايات الكونية. وينذر بحلول هذا التغيير، انهيار الشعوب وانحلالها اللذين يسبقان لحظة التغيير مباشرة، وهو ما كان قد تنبأ به الكتاب الهندوسي المقدس «فيشنوبورانا»: «سوف يكون الملوك المعاصرون الذين يحكمون في الأرض، ملوك الروح الجلف، والأخلاق الفظة، منقسمين في الكذب والشر. وسوف يقتلون النساء والأطفال والبقر؛ ويستولون على أملاك رعاياهم، وستكون سلطتهم مقيدة، وحياتهم قصيرة، وتلبية رغباتهم من غير جدوى. وإذ يتخالط الناس معهم من شتى البلدان، فإنهم يحذون حذوهم... وسوف تتناقص الثروات وأعمال البر يوماً بعد يوم، إلى أن يغرق العالم كله بالفساد... الثروة وحدها ستحدد المكانة؛ والثروة وحدها سوف تكون مصدر الاحترام والوفاء، وستكون الأهواء الوسيلة الوحيدة للنجاح في الدعاوى القضائية؛ ولن تكون النساء سوى موضوع لتلبية الرغبة الجنسية... وسيكون المظهر الخارجي هو الفارق الوحيد بين مختلف مستويات الحياة؛ وسيتحول الغش إلى وسيلة عامة للعيش؛ ويصير الضعف ذريعة للتبعية، ويحل التهديد والتصلب في الرأي محل المعرفة؛ ويدعى الكرم إحساناً؛ ويعد الثري طاهراً؛ ويحل التوافق الثنائي محل الزواج... هكذا سوف يجري في الكالي - يوغا، الانحلال بدأب، إلى أن يقترب الجنس البشري من لحظة دماره. وعندما تدنو نهاية الكالي - يوغا، ينزل إلى الأرض جزء الكائن الإلهي الموجود بقوة طبيعته الروحية الذاتية...، الموهوب ثمانية مؤهلات خارقة. فيعيد العدالة إلى الأرض، وتصحو عقول الذين يكونون على قيد الحياة في آخر الكالي - يوغا، وتغدو نقية شفافة كالكريستال».

وحسب التعاليم أن الإنسان لا يصنع كارما حسنة عندما لا يأتي فعلاً سيئاً، بل عندما يفعل الخير لصالح الآخرين. فليس مهماً ما فعلناه، إنما المهم الدوافع، والبواعث والأفكار التي وقفت وراء فعلنا. إن المساعدة التي نقدمها للآخر بغرض الثناء والحمد، لا تصنع كارما حسنة. وكانت «البهاغافاد - جيتا» قد قالت عن هذا: «كل تصرف تتصرفه من أجل نفسك، يرتد تأثيره إليك نفسك. وإذا كان هذا تصرفاً حسناً، فإن نتائجه حسنة لك، وإذا كان سيئاً فإنك ستحصل على نتائج رديئة، لكن أي فعل تفعله لا من أجل نفسك، بل من أجل الآخر، مهما كانت نتائجه لن يرتد تأثيرها إليك». وإذا ما ساعد الإنسان قريبه، فإنه يساعد بذلك نفسه.

قدم العون إلى حيث تصل يدك، إلى حيث يحلّق فكرك. فهكذا ندق أبواب المستقبل. هكذا تدرك أن كل ساعة سلبت منك سوف تمضي إلى المستقبل. يجب أن نعتاد على أن تعاوننا يأتي بكل ما هو ضروري، إذا لم تجف اليد التي تمسك بالينبوع. إن القلب الدافق بالمعونة، هو قلبنا. وهكذا يمكننا الآن أن نخطو في الزمن الذي مثّل الرعب بالنسبة لمن لا يعرف، لكنه لامع زاه بالنسبة لمن يدرك.

ينبغي على الإنسان أن يعمل لكي يتفتح وعيه، كي يستطيع أن يفهم القوانين الكونية الفاعلة في هذا العالم، ويحدد مكانه فيه. ولكن فهم هذه القوانين وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون الالتزام بها صارماً. وتبعاً لهذه القوانين الروحية، يجب ألا تكون غاية المرء أنانيته الشخصية، بل خدمة الخير العام. وإذا ما نجح الإنسان في هذا، فإنه يغدو سيد مصيره، وقادراً على تحقيق ارتقائه بوعي، ولن تصنع تصرفاته كارما رديئة. وإذ يبلغ المرء هذه الحالة، فإنه ينتقل إلى طور الإله - الإنسان. وعن هذا يقول كتاب «نور على الطريق»: «كل امرئ لنفسه طريق وحقيقة وحياة». فحين يبلغ الإنسان هذا المستوى من الكمال الروحي، يغدو نوراً أمام أولئك العامهين في الظلام، وحقيقة وطريقاً للآخرين. وحيث يتحقق هذا، فإن «يدي الإنسان ستطال النجوم، وسوف يرى عبر الأرض، ويفهم لغة الطير، والوحش، ويلبّي أفكار السماء والأرض، عندما ستتحدث هاتان إليه». (إيمرسون).

فلنتوقف الآن عند مسألة مبدئية أخرى: أين يقع الإنسان في البرهة الفاصلة بين تجسيد وآخر، وكيف يرتبط هذا بكارماه؟ لقد ورد في «كأس الشرق» (الرسالة 19)، أن «كل من لم يغرق في حمأة قذارة الآثام التي لا مغفرة لها، ولم يعاشر الحيوانات، يمضي إلى ديفاتشينا (الجنة). أما عن كارما هؤلاء الرديئة، فقد قيل في الرسالة عينها: «يتوجب عليهم أن يكفّروا عن آثامهم، الإرادية واللاإرادية، فيما بعد. أما الآن فهم مثابون: ينالون نتائج الأسباب التي أتوها هم». ثمَّ تشرح الرسالة مغزى مفهوم ديفاتشينا (الجنة).

«من البدهي أنها حالة. حالة إذا صح القول من الأنانية الشديدة، التي تجني الأنا فيها ثواب نكرانها ذاتها على الأرض. إنها غارقة غرقاً كلياً في غبطة كل

إلحافاتها ونوازعها، وأفكارها الذاتية الأرضية، وتجمع هنا ثمار أعمالها الفاضلة الجديرة. فلا يعكر صفو غبطتها أي ألم، أو كدر، أو ظل حزن: لأن هذه الحالة هي حالة المايا المتواصلة. وبما أن إدراكها الواعي لذاتها على الأرض، ليس أكثر من حلم لحظة عابرة، فإن هذا الإحساس لن يكون في الديفاتشينا إلا كالحلم، لكنه أقوى بمئة مرة. إنه قوي من حيث الجوهر إلى درجة أن «الأنا» المغتبطة؛ تكون عاجزة عن أن ترى عبر هذا الحجاب أي شيء من البؤس والمعاناة، والحزن، التي ربما يعاني منها الذين أحبتهم على الأرض. فهي تعيش حلماً حلواً مع الذين أحبتهم: أَرَحلوا من قبل؟ أم لا يزالون على الأرض؟ إنها تراهم على مقربة منها، سعداء، مغتبطين، أبرياء كرائي الحلم نفسه، الذي لا جسد له».